غي تويلييه - جان تولار

مسألة الزمن

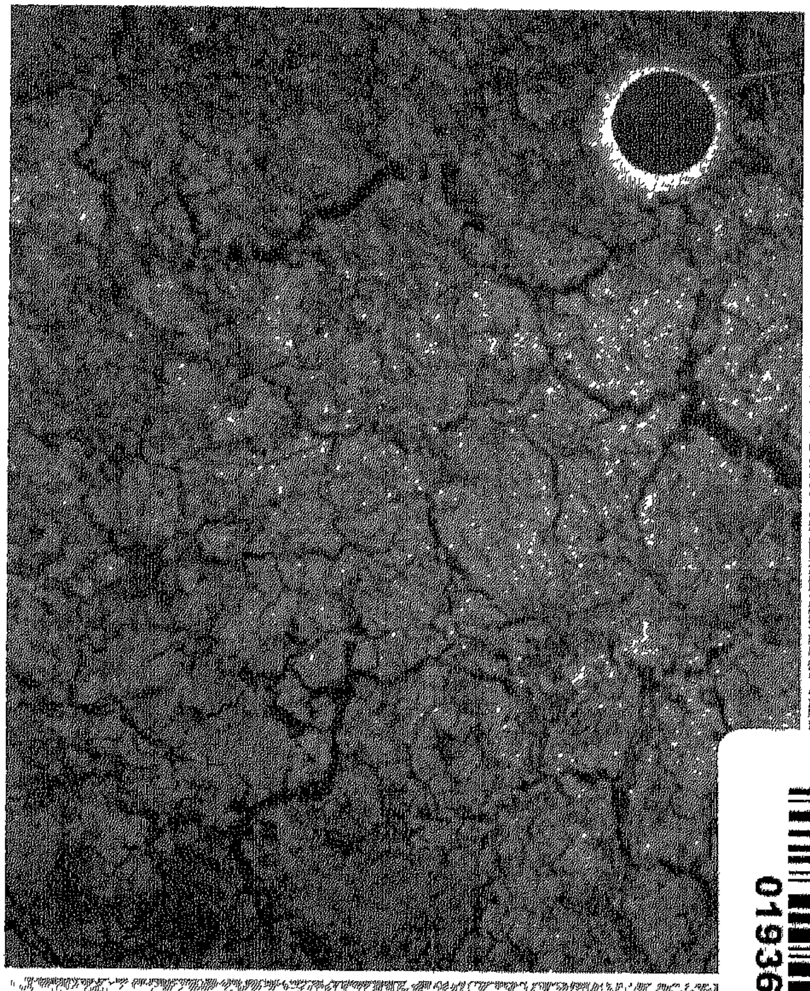

ترجمة : د. عادل العوّا

Bibliotheca Alexandrina
0193608

صناعة المؤرخ

* صناعة المؤرخ
* غي تويليه و جان تولار
* الطبعة الأولـــــــى 1999

* جميع حقوق الترجمة محفوظة للناشر

* دار الكلمة للنشر والتوزيـع والطباعـة
سوريــة ـ دمشــق ـ ص. ب : 2229
هـاتــف ، فـاكـس : 2126326

Alkalemah for publishing and Distribution
Baramikah - Damascus - Syria
P. O. Box : 2229. Telephone/Fax: 2126326

* دار الـحصــاد للنشـر والتوزيـــــع
سوريــة ـ دمشــق ـ ص. ب : 4490
هـاتــف ، فـاكـس : 2126326

غي تويليه و جان تولار

صناعة المؤرخ

ترجمة وتقديم: د. عادل العوا

المقدمة

للتاريخ، بوجه عام، تاريخ، وهو تاريخ وجود وتاريخ فكر. فمن حيث هو وجود يكون التاريخ جماع مايعيشه الأفراد والجماعات في واقع حياتهم، وملابسات نشاطهم، على مرّ الأيام، وتعاقب العصور والحقب. ومن حيث هو فكر فإن التاريخ نشاط ذهني يتوخى المعرفة بما حدث، ثم تحليل هذه المعرفة واستنباط مايحسن استنباطه من قواعد ونظم وقوانين تنير إمكانات السلوك البشري الحاضر والقادم، أو أنها، كما يرى المتشائمون، لاتنير، لأن التاريخ لايكرّر نفسه، والزمان لايشبه الزمان.

والتاريخ، وجوداً وفكراً، محل إهتمام الوعي الثقافي في شتى الحضارات، ومنها، على سبيل المثال الوجيز، الحضارة العربية الاسلامية، حيث تطالعنا العناية بالتاريخ بضروب النمو وصنوف الأنواع. بدأ التاريخ بسرد الأنباء عن الماضي، وكان المؤرخون بوجه خاص من الرواة والقصّاص والوعّاظ. ثم تكامل التتبع فصار بحثاً علمياً انجلت عنه فروع تخصص من طراز فروع الطبقات وفتوح البلدان والتراجم والحوليات وتواريخ السلالات الحاكمة والدول المتعاقبة أو المتزامنة.. وتحرر غير واحد من المؤرخين من الانحياز السياسي والمذهبي وانطلق من مشاهدة الحوادث تارة، ومن نقد الوثائق والأثار نقداً دقيقاً تارات لاستخلاص (الحكمة) كما يقول (مسكويه) من (تجارب الامم) أو استشفاف (العبر) كما نشد (ابن خلدون) في كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر».

التاريخ في نظر (مسكويه) تجربة غزيرة ينبغي أن يفيد منها الناس كافة ولا

سيما الخاصة المسؤولون عن الشؤون السياسية. وهو عند (ابن خلدون) فن عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية. تتداوله الأمم والأجيال، وتُشدّ اليه الركائب والرجال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهّال، إذ هو في ظاهره لايزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسابق من القرون الأول.. ومن باطنه نظر وتحقق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق: فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعّد في علومها خليق».

وبقول آخر، للتاريخ ظاهر وباطن. ظاهره خبر، وباطنه نظر.

وهو حكمة يبدعها حكيم، وفن، ظاهره وباطنه، يتقنه فنّان. والحكيم أو الفنّان هو المؤرخ. ولا مشاحة في نبوغ هذين الناظرين العربيين إلى التاريخ، ونظر أمثالهما الكثر في ثقافتنا صائب حصيف سديد. ولكن الثابت في الأمر، أن العناية بالتاريخ مابرحت تنمو في ثقافات اخرى، في مختلف الحضارات. كما ان من الثابت أيضاً أن نموها لم يقتصر على الجوانب النظرية والمذهبية، الفلسفية والايديولوجية، التي حفل بابداعها الفكر الانساني.. بل إننا واجدون تعمقاً لنتاج التاريخ طامحاً لبلوغ الغاية من الدقة والجلاء.

وقد جاء مؤلفا هذا الكتاب بدراسة شيقة جادة تخطت، أو أكملت، ماسبقها من عناية بشؤون التاريخ. وقد شاء المؤلفان تعمق جدل ظاهر التاريخ وباطنه، ووجدوا ان بين الظاهر والباطن، بل من الظاهر إلى الباطن، ثمة عالم وسيع حي جياش أصيل فيه البراعة مطلب سائد دائم، والنجاح غرض صريح أو مكتوم، فسعيا إلى اختراق حجبه، وهتك اسراره، فكان من ذلك المسعى دراستهما الحاضرة عن صناعة المؤرخ أو مهنته.

تساءلا: كيف يغدو المرء مؤرخاً؟ ووجدا ان الطريق (الملكي) إلى ذلك هو طريق (الجامعة) بمختلف إمكاناتها واختصاصاتها ومؤسساتها ودرجاتها. وتتبعا تطور المهنة بتطور تصور التاريخ وشتى نظرات المدح أو القدح التي واكبت تقويمها.

ولما سألا: ماالمؤرخ؟ أجابا عن ذلك بأنه خبير الزمن الماضي وأنه يتميز بخصائص الفضول والقدرة المعمارية وبموهبة التخمين وباهتمامه بإشكالية الموت على نحو اهتمام الطبيب بحدس الحياة.

إن عمل المؤرخ المهني عمل شاق تمثل صعابه أكثر ماتمثل في ضغط الجماعة، وفي جهود الاحتراف والتدريب ومكافحة المؤرخ أوهامه المهنية عن ذاته وقدراته أو عزلته. وذاك النضال لايتحقق دون حوافز تتحدى المخاطر. أما الحوافز فأهمها حافز الارادة، ثم الطماح، ثم اللذة بفويرقات خواصها المميزة، ثم الحلم، والحلم يلازم كتابة التاريخ، ويتيح اختيار موضوعاتها، وتمني الإبداع المتفوق مشيداً الاحلام - البرامج، ومبيداً أحلام - الاخفاق، متضمناً حافزاً كابحاً هو حافز الحذر ولاسيما من خداع الذات، حاثاً على حافز التواضع اللازب.

صحيح أن المؤرخ لايتجشم المخاطر إلا قليلاً، ولا يكاد يحب المغامرة. ولكن المؤلفَين يبرزان خطر الاختيارات السيئة في صناعة المؤرخ، وينبّهان إلى خطر التاريخ الايديولوجي من جهة، وخطر التاريخ البلاغي من جهة أخرى، فضلاً عن خطر تثبيط الشيخوخة، إذ يشيخ المؤرخ طبعاً، ولكن على نحو سيء في الغالب.

وقد بسط المؤلفان القول في استعمال المؤرخ نشاطه استعمالاً جيداً، محذرين من خيبات الأمل، وشارحَين الواجبات المهنية اللازبة، موضحَين معنى، بل معاني المهم في التاريخ، والمهم هو مايوسوس في صدر المؤرخ حاثاً إياه على البحث والتنقيب والتعميق وإماطة اللثام عن المخفي من الأمر، والمموّه، والمكتوم، كاشفَين الغطاء عن تأثير العوامل الشخصية كالمزاج والسجية في عمل المؤرخ نفسه.

ولما كان المؤرخ يكتب ليُقرأ، فقد عُني المؤلفان بدراسة خصائص جمهور المؤرخ وأبانا حرص قرّاء الكتب التاريخية على أن يمتحوا منها عبراً لأن معرفة الماضي تتيح فهم الحاضر فهماً أفضل، مثال ذلك، رفد تاريخ الحصار القارّي القرّاء بما يساعد على فهم حصار العراق عام 1990 فهماً أفضل.

الوضوح، والامانة، والموضوعية، والتجديد والتشويق هي عناوين واجبات المؤرخ، خادم الحقيقة، مع احترامه القارئ المحتمل. وهذه الصلة تكمل صورتها ببحث ما يسميه المؤلفان التسويق وتوقعات المهنة التي نمت جوانبها حتى جاز تميز مهن تاريخية عدة، بعضها قديم كما في التعليم العالي وفي ميادين البحث العلمي وحفظ التراث، وبعضها الآخر جديد كما في الصحافة والنشر ودنيا مهن السمعي - البصري، وما تنطوي عليه في عوالم الاتصالات ووسائل الإعلام الجماهيري النامية وثباً في هذه الأيام.

أما مستقبل مهنة المؤرخ، وما يتوقع من تطورها القريب، فقد أفرد له المؤلفان فصلاً أخيراً يبين شتى الاحتمالات المتصلة بالوسائل المادية والوسائل التقنية وشرحا نتائج هذا التطور بما يوجب على هذه المهنة التحرك المتجدد، وأن يغدو التاريخ ذاته تاريخاً تقنياً..

وصفوة القول، لم يبق التاريخ سرداً، ولا حكمة أو عبرة، ولم يبق المؤرخ باحثاً عن الحقيقة للحقيقة، بل صارت صناعة التاريخ فناً كما قال (ابن خلدون)، ولكن فن التاريخ هو في أيامنا فن المؤرخ. ومهنته مهنة موهبة وحال، ومزاج. إنها مهنة شاقة ذات حوافز ومخاطر ولها استعمال جيد لايطمح إلى اليقين، بل يكفيه شبه الحقيقة، واللايقين. وهي مهنة حِرفية، كمهنة الساعاتي أو النجّار، ولا مندوحة من أن يعيش المؤرخ المعاصر في لاطمأنينة متزايدة كما يقول المؤلفان، وأن يضطر لأجل بقائه إلى تغيير أغراضه، وطرائقه، ومنظومات استدلاله، وفيما عدا ذلك، ان يحيا على عكس التيار.

* * *

هكذا تمضي مهنة المؤرّخ، ويمضي تاريخ التاريخ، وكلاهما يتسم بالتغير المطرّد تبع الأزمنة والثقافات. وهذا كله بعض مايلفت الانتباه اليه مؤلفا هذا الكتاب بأصالة وكفاءة ونجاح.

عادل العوا

تصدير

مامهنة المؤرخ؟ (كلمة مهنة Métier مشتقة بالادغام من كلمة (Ministerium)، و (Menestier) . إنه سؤال عسير: اذ يحق لكل مؤرخ أن يدلي بإجابته. وإن غرضنا لمحدود:

1 ـ إن هذه الصفحات التي هي التكملة الضروية لكتابينا: (طريقة التاريخ) (1986) و(المدراس التاريخية) (1990) لاتتناول سوى التاريخ الحديث والمعاصر: ذلك أن طرق الاستدلال، وظيفة مؤرخ العصر القديم، ومؤرخ العصر الوسيط، تختلفان بطبيعتهما غاية الاختلاف (ينبغي على المؤرخ منذ القرن السابع عشر، ولاسيما القرن التاسع عشر، أن يعالج جملة وثائقية لايكاد يحيط بها دون عناء كبير).

2 ـ إننا نسعى لتقديم بضعة أفكار تفيد الطالب في التاريخ، والمؤرخ الناشئ، والمؤرخ غير المحترف، ممن يتساءلون عما يشكّل، أو لا يشكّل، كنه المهنة، والذين يترتب عليهم، في الغالب، الاضطلاع باختيارات صعبة، والذين يرتابون في معنى مايصنعون: فهذه الصفحات تستهدف رفد التفكير في بعض النقاط، والتحذير، عند الاقتضاء، من بعض الغلو.

وقد تمنينا اجتناب كل تمجيد مثالي، وكل رياء، في تقديمنا دون موارية صناعة المؤرخ، بأفراحها ومكارهها.

3 ـ إن صناعة المؤرخ، شأنها شأن كل صناعة، تنطوي على طائفة من

قواعد اللعبة التي يرجع قسم كبير منها إلى العرف: ومن الافضل البدء بمعرفتها قبل الانخراط في درب طويل (مبدئياً لثلاثين أو اربعين عاماً). كانت (ميشيل برو Michelle Perrot) تقول(*):

(ليس التاريخ بالأمر السهل)، » الوضع غير مريح لبحث مشترك، لايقيني، مبعثر بين لغات عدة، تتجاذبه طرائق شتى، مسحوق تتهاوى عليه الاسئلة، وهو ملتزم بتتبع جهنمي لواقع يخامره، ويأبق منه«. وقد حسبنا أن علينا ألاّ نموّه (حتى ولو لجأنا إلى التعريض) صعاب المهنة وعبودياتها وأفراحها الحلوة - والمرّة.

4 - إن تصورات المهنة متفاوتة جداً في أغلب الأحيان: بعضها يتخذ التاريخ للتاريخ (مثلما يوجد الفن للفن)، وبعضها لايبرح يؤمن **بالتزام** المؤرخ أو بتاريخ يسهم في (التغير الاجتماعي). وهذا مايبدّل تبديلاً كبيراً ممارسة المهنة ذاتها (مادامت الأوهام وخيبات الأمل كثيرة).

إننا لن نلمح إلى هذه الخلافات - إلا لماما - وهي جديرة ربما بكتاب ضخم.

5 - إن الأفكار المبيّتة في هذا المضمار أفكار عدة: الباحثون يخلطون في الغالب، (ولاسيما على صعيد الجمهور الواسع) المؤرخ بالروائي، وبالصحافي، وبالكاتب، (بعالِم) الاجتماع أو بالمخرج، وكل واحد منهم يذكر الماضي على شاكلته: غير أن صنعة المؤرخ تخضع لبعض قواعد محددة، وضعية(**)، وهذه الصنوف من الخلط المسرف باليسر تشوّه في الغالب صورة المؤرخ.

6 - وكما هي الحال في كل (مهنة) يوجد بالضرورة وهم عن الذات: المؤرخ، شأنه شأن الطبيب، يؤمن يقيناً **بفائدة** مايصنع، وذاك أمر لازب لتحمل ضرورة العناء وأدران المهنة: ولكن لايوجد مؤشر للنجوع (اذ لايوجد مريض يراد شفاؤه). وعندنا أن الأمر إلى حد كبير أمر **لعبة** ذات قواعد معقّدة، وأحياناً

(*) إضراب العمال. فرنسة (1871 - 1890) 1974 ج1 ص 12

(**) المدارس التاريخية ص 86 - 88

غامضة، ولكن هذا التصور يرفضه بعض المؤرخين الذين يؤمنون غالباً بأن التاريخ بحث عن الحقيقة أو أنهم يخلطون بسذاجة، وبخطر، التاريخ بالعلوم الدقيقة. وتلكم أمانٍ **علمية المنحى** قد تبدو اليوم بالية ـ ولكننا نحترس من ولوج ميدان الخصومات المتصلة بقيمة التاريخ الفلسفية، وهي خصومات تجاوز كثيراً مانرمي اليه. فلنحمل القارئ على كتب (ريمون آرون) R.aron أو (بول فاين) P.veyne أو (بول ريكور) P.ricoeur

* * *

ثابت أن من الصعب معرفة ماالمؤرخ: ومثلما هي حال المهن كلها، فإنَّ من الشاقّ جداً أن يفهم الملاحظ الخارجي ماذا يصنع، وإن الذين يحيون داخل المهنة لايكادون يتحدثون عنها، إما خفراً أو حذراً. ومن البيّن أن عمليات المؤرّخ، وفعاله، وما يحقّق، لاينحل البتّة، كما يحسب بعضهم، الى (نقد شهادات)، ولا يمتزج لذلك بتحليلات التاريخ تحليلات فلسفية مزعومة (فلا شيئ اعظم خطراً من خلط التاريخ بفلسفة التاريخ). وليس المؤرخ بانسان العقل، بل إنه انسان من لحم ينظر ويتخيل، ويحلم، ويألم، وهو ذو أهواء، وشغل، وطماح. ومن هنا تنشأ صعوبة الوصف مذ أننا نريد بلوغ الجانب الحي من المهنة. وليس بممكن الاقتصار على أقوال معقمة، ولا على تحليلات مهدئة، ولا على موضوعية المؤرخ أو نقد الحادث التاريخي. ماذا نقول لطالب درجة الأستاذ Maîtrise أو الاطروحة مما يجعله يفكر في مايفعل أو سيفعل؟ ماهي الصورة التي نقدمها اليه؟

إننا نودّ أن نجيب هنا عن بعض الأسئلة (وهي من ناحية اخرى تُطرح بصدد كل مهنة):

من أين تصدر موهبة المؤرخ؟ (الفصل الأول)

كيف تطورت المهنة؟ (الفصل الثاني)

ماهي أسس المهنة؟ (الفصل الثالث)

ماصعابها؟ (الفصل الرابع)

ماحوافز المؤرخ؟ (الفصل الخامس)

ماالمخاطر التي يتعرض لها؟ (الفصل السادس)

هل يوجد استعمال جيد للتاريخ؟ (الفصل السابع)

ماالمهم في التاريخ؟ (الفصل الثامن)

ماجمهور التاريخ؟ (الفصل التاسع)

مالتسويق اليوم وغداً؟ (الفصل العاشر)

هل نستطيع تحديد توقعات المهنة في المستقبل؟ (الفصل الحادي عشر).

الفصل الأول

كيف يغدو المرء مؤرخاً؟

ان الدروب التي تقود الى مهنة المؤرخ دروب عدة. والطريق (المبجّل) اليها هو طريق (الجامعة): ثقافة عامة مكتسبة في صف (الإعداد لدخول الجامعة) (Khâgne) إجازة، تخرج، دكتوراه.

إن مؤرخ المستقبل يهيء تدرجه حين يعدّ رسالته لنيل درجة أستاذ (ميتريز Maitrise) حيث يبدأ الإطلاع على البحث عن الوثائق ويأخذ بتأليف كتاب. وهذه الرسالة (أحياناً متميزة) ليست بصورة تقليدية سوى مسوّدة الأطروحة الكبرى التي ستتيح له ولوج التعليم العالي.

لقد كان إعداد رسالة لنيل دكتوراة الدولة يستغرق سنوات عدة. ولكن البحث التاريخي في فرنسة كان يتقدم عبر هذا النمط من الرسائل. وعلى الرغم من ذلك، فقد أنتُقِد لأنه (ينهك) المؤلف. وقد جُنح الى استبداله برسالة قصيرة لايجاوز إعدادها خمس سنوات، ويتلوها **تأهيل** هو شرط ضروري للتعليم في (الجامعة).

ومن الجائز أن نتساءل عما إذ لم تنتج عن هذا الإصلاح ضربة قاصمة لجودة البحث التاريخي في فرنسة. ومهما يكن في الأمر، فإن الاستاذ، وقد تحرر من هم رسالته، وبالرغم من واجباته التدريسية، يستطيع فيما بعد أن

ينصرف الى نشر مقالات أو كتب إما تخصصية أو تعميمية. إن جلّ المؤرخين الفرنسيين، منذ (لافيس) Lavisse، هم خريجو (الجامعة).

وإلى هذا الدرب يجب عزو (مدرسة شارت) L'Fcole Des Chartes L'Ecole المكلّفة تكوين محافظي مستودعات المخطوطات والمكتبات. مسابقة صعبة، وتعليم تقني جداً، تتوجهما رسالة من مستوى رفيع. انها الحاضنة الثانية للمؤرخين الفرنسيين بميل شديد الى الشارتية من جراء تكوين متين في علم قراءة الكتابات القديمة واختصاص في العهود التي لاتكاد قراءة الوثائق مما يطاله غير الاختصاصي.

أما اذا تعذر المرور بهذا النمط من الدراسة أمكنت المتابعة في (المدرسة العملية للدراسات العليا) L'Ecole Pratique Des Hautes Etudes في (الصوربون)، أو في (مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية) (L'Ecole Des Hautes Etudes en Sciences Sociales) وهي القسم السادس القديم من المدرسة المذكورة. وقد حظيت باستقلالها منذ وقت قريب. إن القبول في (المدرسة العملية للدراسات العليا) لايستلزم أية شهادة، وقسمه الرابع خاص بالعلوم التاريخية والفيلولوجية، وهي تكوّن مؤرخين في تاريخ الرومان ولا سيما في مجال العصر القديم والوسيط (وقد ظل هذا القسم خلال زمن طويل يرفد (المدرسة الفرنسية في رومه) L'Ecole Francaise De Rome بالطلاب) حتى تاريخ باريز (لقد احدثت محاضرات ميشيل فلوري (M. FLEURY) تأثيراً كبيراً في البحث الأثاري في العاصمة). ومن الممكن بالانطلاق من رسالة نوقشت في (المدرسة العملية لدراسات العليا) الانزلاق الى الحلقة الجامعية الثالثة.

وفي وسع الجامعيين أو خريجي (شارت) أو حملة شهادات (المدرسة العملية للدراسات العليا) الذين يريدون الانصراف الى البحث التاريخي حصراً أن يتجهوا الى (المركز القومي للبحث العلمي Le Centre National).

DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE الذي يعتمد الألقاب

لدى اختيار تنهض به لجان من الاختصاصيين. وهناك يمكن الاضطلاع بممارسة عمل: مهندس، ملحق، باحث، مدير بحوث (وهذه الوظيفة الأخيرة تضاهي استاذ جامعي). وعلى الرغم من ذلك، فان البحث الفردي (لقد كان المدرس يطلب اجازة لسنتين أو أربع سنوات حتى ينجز رسالته) أضحى شيئاً فشيئاً غير محبّذ في CNRS . فالأفضل ترجيح جانب (فرق البحث) و(المخابر) دون أن تكون النتائج بديهية جداً.

ومن الممكن كذلك ولوج صرح التاريخ عن طريق الصحافة. أجل، هناك سوء ظن تقليدي بسعة معرفة الصحافي المتهَّم بأنه يعمل عملاً لاحقاً وسريعاً. ولكن من ميزة الصحافي أنه يعرف السيطرة على الحوادث ويعرضها عرضاً جليّاً دون أن يُغرق القارئ في لجّة من التفاصيل.

ان الصورة الجصيّة الكبيرة لـ (هنري امورو) H.amouroux (تاريخ فرنسة الكبير في ظل الاحتلال)، هي من صنع صحافي كبير انقلب مؤرخاً، وعلى الرغم من ذلك فانها معتَمدة.

زد على ذلك أن الروائي الذي يعوزه التخيل قد يتحول إلى مؤرخ. انه يقحم الحياة في كتابه، ولكن تجارب الروائيين الذين غدوا مؤرخين لاتكاد أن تكون ناجحة إلا في حالات استثنائية نادرة.

أفلا يكون الساسة أفضل المؤرخين؟ إن زادهم من التجربة الشخصية يجعلهم في الغالب أقدر من الانسان واسع المعرفة البارع على فك ألغاز مؤمرات أسلافهم. لقد نجح (هانوتو) HANOATUX أو (هريو) HERRIOT في الماضي، ونجح اليوم (اودغار فور) EDGAR FAURE و(موريس شومان) M.SCHUMANN . و (آلان بييرفيت) ALAIN PEYREFITTE أو (فيلبيت ساغان) SEGUIN PHILIPPEE في مشاكسة (كليو) CLIO. ولكننا لاننسى أن (آلان بييرفيت) خريج شارع (اولم) ULM وأن (ادغار فور) حائز على درجة التخرج في تاريخ الحقوق.

وثمة اخيراً الهواة، فضوليو ماضي مدينتهم، أو أقليمهم، أو مجرد

أسرتهم. انهم لايتخذون بحوثهم مهنة، ولكن ابحاثهم تنمو في الغالب على حساب مهنتهم. ولولا الباحث المحلي الواسع الاطلاع ماكان التاريخ الكبير على ماهو عليه.

المؤرخ اذن قد يكون استاذاً في (كوليج فرنسة COLLEGE DE FRANCE أو كاتباً لهجاً ذا موهبة كمؤلفي الإذاعة، منبر التاريخ. وقد يكون اهتمامه بالتاريخ صادراً في طفولته عن قراءة (الكسندر دوما A.DUMAS أو عن فضول نحو الماضي أو عن الايديولوجيا. المهم في الأمر هو الهوى ولكنّه هوى تُعدِّله طريقة صارمة(*).

(*) إننا نحيل على ج. تويلار وج تولار: **الطريقة في التاريخ**، وهو منشور في هذه السلسلة.

الفصل الثاني

تطور المهنة

1 ـ صور التاريخ

لم يكن المؤرخ محل تقدير في القرن السابع عشر. وقد سخر (ديكارت) DESCARTES في (مقالة الطريقة) من التاريخ الذي يسيء المحاكمة، ولا يعدو أن يكون فرعاً من الشعر والخرافة: «**عندما يكون المرء مشغوفاً بإسراف بمعرفة ماكان يجري في القرون الخالية يصبح في العادة جاهلاً بإسراف بما يجري في القرن الحالي**». ويصرح (لاموت لوفاير) LAMOTHE LE VAYER بجلاء سنة 1638 في (مقالة التاريخ): «يتفق المعلمون كافة على أن التاريخ جزء من فن الخطابة. ولذلك يقول (كنتليان) QUINTILIEN إن التاريخ شديد القرب من الشعر حتى أنه أشبه بقصيدة حرة دونما قيد. والواقع أن التاريخ يقدم لنا الاشياء العارضة والحقيقية بمثل هيئة وصف الشعر لنا الأمور الجائزة وشبه الحقيقية». إن احداً لايصدق التاريخ حقاً. التاريخ ليس سوى مسألة تجّار الآثار والفضوليين والعارفين(*).

(*) انظر بصدد روابط التاريخ بالحكم الملكي كتاب (ب. باريت ـ كريكل): (B.BARRET - KRIEGEL) : **الجمهورية اللايقينية** 1988 ولا سيما (م. فيمارولي) M. FUMAROLI . التأريخ والابستمولوجيا في العصر المدرسي - في «**اليقين واللايقين في التاريخ**» 1987 PUF ص 87 - 101

وقد سخر (لابروير) LA BRUYERE منهم بخبث في مؤلفه (السجايا)(*): «لا يعرف (هرماغوراس) HERMAGORAS من هو ملك هنغاريا؛ وهو يُدهش لأنه لم يسمع بمن يذكر ملك بوهيميا. لاتحدثوه عن حروب فلاندره وهولندا. اعفوه على الأقل من أن يجيبكم. انه يخلط العهود، ويجهل متى بدأت، ومتى انتهت، معارك، حصار. كل شيء جديد في نظره. ولكنه عارف بحرب العمالقة. وهو يتحدث عن تطورها وعن أدق تفاصيلها. ولا شيء منها يفوته. وهو كذلك يفكّك الاختلاط الرهيب بين المملكتين: البابلية والآشورية، وهو يجيد معرفة المصريين وأسرهم. وهو لم ير (فرساي) قط، ولن يراها أبداً. وكأنه قد رأى برج (بابل) إذ أنه يعدّ درجاته، ويعرف عدد المهندسين الذين أشرفوا على هذا الأثر. ويعرف اسم المهندسين. هل أقول إنه يحسب أن (هنري الرابع) هو ابن (هنري الثالث)؟ إنه يهمل على الأقل معرفة أي شيء عن أسر فرنسة والنمسا وبافيرا: يقول وهو يسرد عن ظهر قلب لائحة طويلة بأسماء ملوك ميديا وبابل: مهلاً دقائق قليلة، وإن اسماء (ابرونال) APRONAL و (هيريجبال) HERIGEBAL و(نوزنموردداخ) (NOE SEMORDACH) وماردوخمباد MARDOKEMPAD مألوفة لديه مثلما نألف نحن اسم (فالوا) VALOIS و (بوربون) BOURBON. إنه يسأل هل إن الامبراطور قد تزوج للأبد. ولكن أحداً لن يجيبه بأن (نينوس) NINUS كانت له زوجتان. يقولون له إن الملك كان يتمتع بصحة رائعة. وهو يتذكر بأن (توطموزيس) THETMOSIS، ملك مصر، كان ضعيف البنية، وانه ورث ذلك عن جده (اليفارموتوسيس) ALIPHARMUTOSIS. مالأمر الذي لايعرفه اطلاقاً؟ ماالشيء الذي أخفي عنه عن العصر القديم المبجّل؟».

إن تاريخ المعرفة الشاملة في القرن الثامن عشر تاريخ ثانوي، هزيل، موضع اهتمام الأوصياء، أو البنديكتيين، لهوٌ في أحسن الأحوال. ولم يُحمل التاريخ محمل الجد ويصبح قضية دولة إلا بعد الصدمة الثورية: فقد أراد

(*) يجب ذكر الصفحة لأن بعض السمات هي حالية دوماً.

(نابليون) NAPOLEON إحداث (**مدرسة خاصة للجغرافية والتاريخ**) وفيها عشرة كراسي للتاريخ، بغية تكوين إدارييه ودبلوماسييه.

التاريخ يُدرَّس في كليات الاداب، وفي (كولِيّج فرنسة). و (مدرسة شارت) تكوّن اختصاصيين. وقد غدا المؤرخ موظّفاً، وصارت المعرفة محل إجلال: تخرج (سلفستر بونار) SYLVESTER BONNAR من (المدرسة) - وهو أنموذج المؤرخ الأدبي الوحيد الذي نعرفه: فلم يتجرأ لا (بلزاك) BALZAC ولا (زولا) ZOLA ولا (بورجه) BOURGET على وصف المؤرخ ، وابتكار انموذج مؤرخ(*). اصبح التاريخ علماً، وصارت المهنة تُعَلَّم في حلقات بحث (على الطريقة الالمانية) أو في (مدرسة عملية للدراسات العليا) (التي أحدثت عام 1868): المؤرخ عالم واسع المعرفة يراكم **جذاذاته**(**) وهو يغرق في التفاصيل، ويعيش في عالم آخر.

شرع المؤرخ بالانخراط في المعركة السياسية في إثر قضية (دريفوس)(***) (DREYFUS) فقد كان سيفتون SYVTON استاذ تاريخ مثل بانفيل. وصارت درجة التخرج تقود إلى النيابة البرلمانية، الى الوزارة (ولكن شخصاً مثل دالاديه DALADIER لايكاد يشرف المهنة). ومن البيّن أن هذه الصورة لم تتغير منذ سنوات 1930(****): المؤرخ الذي يراوح، الذي يناضل من أجل جبهة الانقاذ الوطني FLN أو من أجل الفلسطينيين، الباحث الذي يحسب انه يعمل من أجل الثورة وهو يدرس الاضرابات، والاستاذ الذي ينوي ممارسة هيمنة سياسية؛ إنها صور صارت مدرسية، وقد اسهمت قليلاً في تشويه سمعة

(*) إن **الصورة الأدبية** للمؤرخ مختصرة جداً (بينما قدم بلزاك صورة عن انموذج محب الجمع في «**ابن العم بونس**»، ونحن لانكاد ندري لماذا.

(**) جذاذاته: قطع صغيرة، مكسّرات، قراضات...

(***) المدارس التاريخية 1990 ص 34 - 35

(****) التبدل المادي الوحيد هو ظهور باحثين متفرغين في CNRS منذ 1950 وهم يمثلون نمطاً خاصاً من المؤرخين ماداموا قد انقطعوا مبدئياً عن التدريس.

الجماعة: ذلك أنه في سني 1975 ـ 1985 أدى تراجع الماركسية، و(نهاية الايديولوجيات) الى الحطّ كثيراً من شأو ذاك التاريخ الملتزم، وكانت خيبات الأمل جد كبيرة حتى ان المرء لايكاد يؤمن بالتقدم ولا بدور طبقة الكادحين. وقد أظهر الاحتفال بذكرى 1789 بوضوح ضآلة الاهتمام بتاريخ (مسيَّس) بإسراف : واليوم، من ذا الذي يجرؤ على الادّعاء بانه **استاذ حقيقة؟**

غير ان صور المؤرخ قد اضطربت في الوقت ذاته: انهم يخلطون باستخفاف، التاريخ بالصحافة (هل التاريخ المباشر تاريخ؟)، التاريخ بالانشاء الفلسفي (او السياسي) ـ إن أمثال (ب. هـ. ليفي) B. H. LEVY أو (ريفل) REVEL لاينهضون بعمل مؤرخين ـ يخلطون التاريخ بالرواية التاريخية (ولكن مثل جاك لوران J. LAURENT . يجيد اللعب بالتاريخ).

ونجم عن ذلك أن ساد اعظم اختلاط وبات من الضروري التذكير بأن المؤرخ ينهض بمهنة مؤرخ، وانه يخضع لبعض قواعد المهنة، والى نوع من أخلاق المهنة، وهذه القواعد لاصلة لها بقواعد عمل الفيلسوف أو الروائي.

2 ـ أفكار عن المهنة.

من الشاق جداً لمّ أطراف أدب مهنة المؤرخ: ذلك لأن أفكار الفيلسوف، من (بوسويه) BOSSUET إلى (ريكور)، ومن (فولتير) VOLTAIRE إلى (آرون)، لم تعالج إلا قليلاً ممارسة المهنة ذاتها، ولا تحليل مايصنع المؤرخ. لقد كتب (مارك بلوخ) MARC BLOCH سنة 1941 ـ 1942 ، في ظروف مفجعة، **إمتداح التاريخ أو مهنة المؤرخ**: وهو كتاب لم يتم، ومن هنا صعوبة تفسيره، ولا بد من إعادة قراءته. وقد كان في مكنة (لوسيان فيفر)(*) L. FEBVRE و(الفونس دوبرُن)(**) A.DUPRONT أن يكتبا «**مهنة**

(*) القسم الاساسي من خواطره يوجد في في (معارك من أجل التاريخ). ولكن قد توجد في أوراقه ملاحظات لم تنشر ومراسلات مهمة.

(**) انظر: التاريخ بعد فرويد FREUD. مجلة التعليم العالي 1969

التاريخ» ولكنهما أحجما بدافع الحذر أو الوسواس. وإنما فلاسفة من أمثال (آرون(*)، ريكور(**)) ومؤرخو العصور القديمة من أمثال (مارو(***) MARROU، بول فاين(****)) هم الذين كتبوا في موضوع صناعة التاريخ، ولكنها كتب صعبة المنال، لايكاد المؤرخ الشاب يفيد منها. ان الكتابة في موضوع (**صناعة**) التاريخ هي بوجه التقريب تصدِ لمحظور. والانتقادات تصدر عن جهات اخرى.

الانتقاد الأول:

كان (اناتول فرانس)، A.FRANCE هذا البنديكتي الماكر، يسخر في (**جريمة سلفستر بونار**) من دعاوى التاريخ العلمي المزعج: فالشاب الشارتي (الجيلي) عاشق جانه، صرّح لـ **بونار**، تصريحاً تام الجلاء، بأنه (لايؤمن بأن التاريخ علم، أو بأنه سيغدو علماً ابداً): «أوه قال لي: أولاً ما التاريخ؟ إنه تمثل مكتوب لحوادث ماضية. ولكن ماالحادث الماضي؟ هل هو أي حادث؟ تقول لي: كلا، إنه حادث بارز. ولكن كيف يحكم المؤرخ على حادث بأنه بارز أو غير بارز؟ إنه يحكم عليه بصورة تعسفية، بحسب ذوقه وهواه، تِبْعَ فكرته أو اخيراً حكم فنان! ذلك ان الحوادث لاتنقسم بطبيعتها إلى حوادث تاريخية وحوادث غير تاريخية. ومن ناحية أخرى، الحادث شيء معقد غاية التعقيد. فهل يمثل المؤرخ الحوادث من حيث تعقدها؟ ذلك محال، فهو سيمثلها مجردة عن جلّ الخصائص التي تميزها، وبالتالي تكون مخرومة، مشوّهة، مختلفة عما كانت عليه. اما علاقة الحوادث بعضها ببعض فلنحجم عن الكلام عليها. ولئن

(*) **المدخل إلى فلسفة التاريخ** 1938 و: **أبعاد الوعي التاريخي** 1961.

(**) **الزمان والحكاية** 1983.

(***) في **المعرفة التاريخية** الطبعة الرابعة 1960 ومهنة المؤرخ في **التاريخ وطرائقه** - موسوعة لابلياد 1961 ص 1467 - 1540.

(****) كيف نكتب التاريخ 1971.

كان حادث تاريخي ناجماً، وهذا امر جائز، عن حادث أو عن حوادث غير تاريخية، وهي مجهولة من هذه الناحية، فما سبيل المؤرخ، من فضلك، لابراز علاقة هذه الحوادث بعضها ببعض؟ وأنا افرض (...) ان المؤرخ يلفى أمامه شهادات ثابتة، في حين أنه لايثق بهذه الشهادات أو تلك إلا لأسباب عاطفية. إن التاريخ ليس علماً، بل هو فن. والمرء لاينجح فيه إلا بالتخيل»(*). ومن البيّن أن مقالة (جيلي) الشاب تنمّ عن حس سليم: ولكن المؤرخين ينسون في الغالب قراءة **(جريمة سلفستر برنار)** التي تصيب في تقطير الشك.

الانتقاد الثاني:

كان (بيغي) PEGUY يريد وضع رسالة عن نظرية التاريخ، ونحن لانملك عنها سوى مفردات أولى (الرسالة 1909). غير أنه عالج موضوع مهنة المؤرخ مرات عدة في **(صباح نصف منير)**، (1904 نشر سنة 1952)، وفي **(وضع التاريخ وعلم الاجتماع في الأزمنة الحديثة)** (1906)، وفي **(ملاحظة مواكبة الى السيد ديكارت)** (1914)، اذ سخر بخبث من المزاعم العلمية لبعض المؤرخين ـ علماء الاجتماع(**) واحتج على سيطرة (الطرائق العلمية) التي

(*) نشرت جريمة سلفستر بونار سنة 1881 . ولكن (مارك بلوخ) مافتئ حانقاً على صورة المؤرخ التي ذكرها (اناتول فرانس): » ان **(سلفستر بونار اللطيف الهارب)** سيكون جديراً بأن يمثل كأنه راعٍ، أو القديس التعاوني لطائفة تامة من المؤرخين الذين كانوا على وجه التقريب معاصرين فكريين لمن حكى حكايتهم: عمال شرفاء كل الشرف، ولكن نفسهم قاصر قليلاً(...) وهم متأهبون للتصاغر تصاغراً كافياً أمام زملائهم المخبرين. وهم بوجه الاجمال اميل إلى توصيتنا بالحذر منها إلى الوثوب». ولكن أليس في ذلك تصور للتاريخ جد **معقول؟**

(**) تعوزنا دراسة جيدة لتصور التاريخ منذ (بيغي)، والنصوص غزيرة، وقد كان (بيغي) خبيثاً: ألم يقل لـ (بندا) BENDA بصدد كتابه عن (جان دارك): «إن تفوقي الكبير على (ميشله) MICHELET هو إنني توصلت إلى جهل أنها قد أُحرقت».

تنجب تاريخاً جافاً(*):

«لقد حققت علوم التاريخ قدراً من التقدم منذ مائة عام، وربما منذ الأزل. وقد أصبحت أشبه بمعمل، غرضها سحق الماضي. وهي، بصرف النظر عن الاحترام الذي يترتب علي نحوك، معمل محفوظات غذائية. إن لها طرائق، ومراجل، وأنابيب، ومخازن. واخيراً فإن لها كل مايلزم. وانه، بوجه الدقة، معمل تبريد، لأنه لايحفظ إلا في البرد (وما أن تعودالحرارة حتى تعود الحياة). وبفضل ذلك نجده يجلب الطمأنينة، واليقين، والسكينة، على غير مايباع في الحوانيت المواجِهة (ان الدور المواجِهة ليست سوانا: الإيمان، اللاهوت ،الفلسفة، الميتافيزياء، الأخلاق، الحياة المدنية، الاقتصاد، الشعر، الفنون التشكيلية والفنون الموسيقية: أي الواقع، بإيجاز»(**).

لقد أجاد (بيغي) فهم دروس (برغسون) Bergson: ولكن نقده التاريخ ذا المزاعم العلمية والسوسيولوجية، حيث يبالغ في تأثير (الطرائق) كان نقداً لايكاد يُفهم.

الانتقاد الثالث:

لقد اساء المؤرخون كثيراً تقديرانتقادات (بول فاليري) p.valiry - حاول (لوسيان فيفر) L .FEBVRE الحيلولة دون انتخابه عضواً في (كوليج فرنس) سنة 1937 - إذ أن خواطره وملاحظاته كانت في أغلب الأحيان أدنى الى **مدرسة الحوليات**(***): ولكن (فاليري) كان ينكر بحزم أن يكون التاريخ علماً.

(*) لقد كان يهزأ كثيراً من «هؤلاء الشباب الصغار المتكلفين، الشباب الهزيلين الذين يملكون الأدوات والطرائق امتلاكاً تقريبياً متفاوتاً ولكنهم لايملكون أي مضمون. كما لو أن جهل الحاضر هو الشرط اللازب لبلوغ المعرفة».

(**) ملاحظة مواكبة 1914.

(***) لم ينهض أحد بكتابة أية دراسة شاملة لنظرة (فاليري) إلى التاريخ. والواقع أن النصوص مبعثرة جداً: نجد بعضها في **«الفكرة الثابتة»** (1932)، وفي **«خواطر تتعلق بي»** (1943)، وفي **«نظرات»** (1945) وفي «مبادئ فوضوية محضة وتطبيقية» (1948)، ولا سيما في **«الدفاتر»** وهي مخطوطة. وقد استؤنف بعضها في المختار، ←

وهذا مايفسر الغضب الناجم عن هجماته على التاريخ، ولا سيما في «**نظرات الى العالم الحالي**»(*) (1931). بيد أنه سيكون من اليسر أن نبين أن لدى (فاليري) تصوراً جد حديث للتاريخ، تصوراً جديراً بالاهتمام دوماً.

ـ كان (فاليري) يكره حركة (العمل الفرنسي) و (موراس) (MAURRAS) وكان يدين من علٍ مزاعم المؤرخين بأنهم يلقون دروساً، ويعلّمون الشعب: ولقد كان يستهدف التاريخ ذا المنزع القومي، وكذلك كل تاريخ (ايديولوجي). وكان شديد الحذر من استخدام الاحزاب، أو الدولة للتاريخ، ومن المخادعات الصادرة عنه: (التاريخ يصلح لمنع رؤية الحاضر).

ـ كان يلفت الانتباه (ونحن لانستطيع تخطئته) إلى رفض المؤرخين الإفصاح عن مواضعاتهم: «**إن ماآخذه على التاريخ هو ضآلة وعيه بما هو، بالمهنة التي يعتنقها، بما يستجيب له (السذاجة)، وبما ينتج**»(**).

وكذلك: «المؤرخ ـ كما الفيلسوف ـ وكما الطبيب، ليس لديه حتى فكرة التفكير في المواضعات التقليدية وقِطَع اللعبة التي يلعبها. بل إنه لايرتاب حتى في مايصنع. وإن ذلك لعبة بوجه الدقة (وماقِطَعها سوى بعض **كلمات** اللغة الانتمائية). كلمات هي بالدرجة الأولى ممتنعة على التعريف...» وبكلمة واحدة، يجب إعادة تحديد **المواضعات**: «الإصطفاء، التصنيف، التعبير عن الحوادث التي وصلت الينا امور غير مفروضة علينا من جانب طبيعة الاشياء. إنها بلا ريب نتيجة تحليل وقرار صريحين؛ انها على الدوام تخضع عملياً لعادات وسبل تقليدية من الفكر والقول، ونحن لانرتاب باتسامها بسمة طارئة أو تعسفية...» . وهو يطلب أن تأتي «**تعريفات ومواضعات جلية وخاصة**» لتحلّ أخيراً محل «**الدلالات الأصلية المختلطة والإحصائية**». بيد أن صنوف

← دفاتر، مكتبة لابلياد ج،1974 2 ص 1447 (ومايلي). وسيكون من الضروري إعادة نشر جملة النصوص حول تاريخ (فاليري).

(*) المصدر السابق

(**) الدفاتر ج 26 ص 42

التقدم لم تكد أن تكون حساسة في هذه النقطة منذ نصف قرن.

- يسخر (فاليري) - تماماً كما يسخر (اناتول فرانس) - من مزاعم التاريخ العلمية، من (موضوعيته الظاهرية): «إن التاريخ لايعلّمنا سوى المؤرخين: هل لهم اسلوب، فطنة، موهبة في مهنة، جعلنا نؤمن بوجود (اسباب) أو (قوانين) (.....) إنه فن : لاأقل ، ولكن لا أكثر(*)».

- إنه يقلق بازاء الميوعة الخطرة للمفردات «لو لم يكن المؤرخون اطفالاً لفهموا أن المسألة ليست بالأمر اليسير لدى النطق بهذه الكلمات: **قَرْن، شعب**)(**).

- التاريخ يهمل الأساسي وما لا يخلف اثراً: إن اكتشاف بطارية (فولتا) VOLTA اكثر أهمية من تاريخ (الثورة)، فهو يستلزم صنع تاريخ الكهرباء، وتاريخ الحياة الجنسية، أو تاريخ داء الزهري (ندرك اذن مدى اقترابه من امثال (لوسيان فيفر). لنقرأ الفكرة الثابتة:

«**عشاء جيد، مقام جيد، وهذا الباقي** الذي نتحدث عنه، وانني لأُرجع بالتاريخ كله إلى هذه المحاور الثلاثة.

« - ولكن ياصديقي، إن التاريخ لايُعنى بالبشر! تاريخ الكتب. التاريخ الذي نعلمه لايهتمّ إلا بالحوادث الرسمية. إنه على الأخص مجموعة صور وأحياناً تفحص الهويات (....).

« - (يقول الطبيب: الحق معك مائة مرة صدّق أن إدخال الزهري الى أوربه حادث يفوق بأهميته قليلاً أهمية معاهدة (اوترخت) (....). وهم لاينبثون عنه ببنت شفة...».

وفي أمكنة أخرى، يذكّر (فاليري) بأن «التاريخ الذي نعلمّه لايفطن البتة

(*) خواطر تتعلق بي ص11

(**) مبادئ فوضوية ... ص 166

إلى تقديم أية فكرة عن جريان الأمور شيئاً فشيئاً. مثال ذلك دور الشرطة، وهو مهم جداً في جميع الانظمة، ولكنه شبه أساسي في القرن التاسع عشر للسياسة المتعاقبة لأربعة نظم (..) كل شيء يحدث كما لو كان بطريق السحر أو بأفكار عامة، بينما يجب الاضطلاع باستبيان لايخلو من التعقيد، والاحجام عن تصديق التفاسير. لاوجود لتفسير (....) وكل كتاب تاريخ لاينتهي الى فكرة الاختلاط والمصادفة فهو عمل سدى...».

اننا نرى جيداً أيان ينزع (فاليري): الى تاريخ يرفض السياسة، ويفكر في اجرائياته ومواضعاته، ويوسع استبيانه، ويرفض فكرة السببية. وتلكم مقولات **معقولة** جداً: إن المؤرخين يجترحون أفدح خطأ اذ لايقرأون (فاليري). فلو فعلوا لوجدوا مسالك للبحث، وان خواطره الحية جديرة بكتب مطولة .

إن مايستحوذ على انتباه الملاحظ عام 1991 - الى جانب (فاليري) - هو العوز العام للتفكير في مواضعات المؤرخ لدى ادراكه الماضي. ومن شان تأثير الماركسية المنتشر، والايمان بتاريخ (ملتزم)، والتقاليد ذات (المنزع العلمي) في المهنة، أنها تفسير غياب القلق الملمع اليه بصدد المهنة: اننا لانكاد نخرج من هذه الفترة **الرمادية**.

الفصل الثالث

ما المؤرخ؟

المؤرخ يعاني عندما يعرّف مايصنع: فهو لايحب الاطناب في الحديث عن ذلك(*)، بل انه يشعر بالقلق فور ذكر مواصفات المهنة، ويفضّل الزهو بطماحات علمية (التاريخ جزء من «العلوم الانسانية»:)، وهو يستخدم تقنيات تسمى (علمية)، ويمتح من علم الاجتماع، وتاتي الاحصاءات والخطوط البيانية ليتخذها تمويهات ممتازة). والحق ان التاريخ **حرفة يدوية**: المؤرخ لاينشد (قوانين) ـ فذاكم زعم سخر منه (فاليري) ـ وهو لايستطيع اجراء تجريب، بل إنه يعيش في النسبي، في الجائز، في الفريد، وهو يسيء الظن (بالأفكار): انه ممارسة، براعة خاصة يعسر تعريفها أشد العسر لكثرة لبسها. لنذكر بإيجاز بعض الصوى (العلامات).

1 ـ خبير الزمن الماضي

المؤرخ خبير الزمن الماضي: ونحن نتبين افتراقه عن الفيلسوف وعن عالم الاجتماع. ولكن الفلاسفة يزعمون، هم ايضاً، تفسير الماضي. ويسعى علماء

(*) هناك رفض جد مألوف لذكر هذه المشكلات بسبب كثرة المنازعات السياسية أو الايديولوجية التي تثير مشاعر الرابطة حول معنى التاريخ أو فائدته: كان (الفونس دوبرون) A.DUPRONT. يصرح سنة 1964: (إن عوز التفكير في مايفعل المؤرخون، وفي جلاء معناه، أمر يبعث الذهول). ونحن نفضّل أن ندع الفلاسفة أو مؤرخي العصر القديم يتحدثون عن مهنة المؤرخ...

الاجتماع إلى الافلات من أسر الحاضر والصعود إلى الماضي: الأمر الذي يقود إلى معارك لانهائية(*)، حتى أن ثمة بعض الازعاج لدى الكلام على المهنة، على **صناعة المؤرخ**، فور محاولة الخروج من الحقل الضيق لجمع (الشهادات ونقدها، أو تفسير (المصادر)(**) وقد آل الاسراف في مناقشة فائدة ـ أو لا فائدة ـ التاريخ وعلاقاته بالمجتمع ودوره الاجتماعي، آل في الغالب الى إرباك وضوح الأمر المهم في مهنة المؤرخ، أعني عمله المعاش، طرز حياته ومناقشته مهنته. ألا إن **الأمر بديهي**: ، اذ غير مجدٍ الاهتمام بهذه (الشؤون المبتذلة)، والتفكير في ممارسة المهنة أو في جملة واجباتها، وتلكم هي الأجوبة التقليدية، وذاك زمن ضائع على حساب البحث. أن يعاش الاقتصاد القياسي، أو اللسانيات أو المعلوماتية: تلك هي ذرائع ممتازة لانصرافنا عن التفكير في ممارسة المهنة أو في **أخلاق** المؤرخ ـ فلندع هذه المعارك المذهبية التي كثر ما أثارت اضطراب المنظر منذ نصف قرن (لقد كلّف التاريخ الملتزم) التفكير في التاريخ غالياً(***). ولنحاول طرح بعض الاسئلة لإنارة سبيلنا:

السؤال الأول: من ذ االذي يُدعى مؤرخاً؟ ينبغي أن نميز **دوائر** عدة:

1 ـ المؤرخون المحترفون، الجامعيون الذين يعلّمون التاريخ، المتفرغون للبحث.

2 ـ المؤرخون المنتمون الى «تخصصات» اخرى (الاداب، العلوم، الفنون) الذين يملكون معرفة (تقنية) الى جانب كونهم خبراء في شؤون الماضي.

3 ـ محافظو المحفوظات، والمتاحف، والمكتبات العامة، الذين يصونون

(*) انظر بصدد الخصومات مع علماء الاجتماع: (بول فاين): كيف نكتب التاريخ؟ (1971)

(**) لايوجد فيما يبدو أي تعليم أو أي بحث يتصل بصميم التاريخ. وقد كان (لوسيان فيفر) يتمنى إحداث علم اجتماع للتاريخ لم توضع بعد حتى مسوّدته (معارك من أجل التاريخ ص 438).

(***) انظر: المدارس التاريخية 1990 ص 40 ومابعد

التراث ويعملون عمل المؤرخ (إن دليل معرض من المعارض عمل من أعمال التاريخ. ونحن ننسى ذلك في الغالب).

4 ـ المؤرخون (غير المحترفين) الذين يعنون بالتاريخ **طلباً للذة**، دون أية منفعة لنشاط شغلهم، كتّاب عدل، اطباء، مهندسون، أساتذة، أو اداريون. وهم يهتمون إما بتواريخ (تقنية) جداً (مثلاً بتاريخ الكهرباء أو تاريخ علم النفس المرضي)، وإما بالتاريخ المحلي.

يتضح اذن أن كلمة مؤرخ تدل على وقائع جد متباينة، وان معناها يختلف باختلاف هذه الفئات(*): وهذا ماينبغي أن يقود إلى بعض الحيطة(**)، وأحياناً إلى توترات شديدة جداً: التاريخ الجامعي يزدري في الغالب ازدراءاً كبيراً، على نحوما ذكّر بذلك (بول لويليوت) P.LEUILLIOT ، البحاثة الواسعي المعرفة المحلية وهم مستقلون عن (الازياء الذائعة) ولا يعنون بالاقتصاد القياسي(***) إلا قليلاً. ذلك ان المؤرخ (غير المحترف)، وهو يعمل ابتغاء **اللذة**، يتحلى ببعض الميزات: انه لايهتم بعمل في منصب، ويستطيع توجيه ابحاثة كما يشاء، وهو غير متعجل، وفي مكنته أن يتمتع بالوقت كما يحلو له...

السؤال الثاني: ان ممارسة المهنة تميط اللثام عن تنوع مذهل؛ لقد كان من اللازم جرد مختلف أصناف المؤرخين: (الصحافي)، هاوي الجمع، **واسع المعرفة** على طريقة (**سلفستر بونار**)، صاحب الرعاية محبٌّ التوجيه، المذهبي، **الرائد** أو المبتكر الذي يحاول التجديد وارتياد مجالات مجهولة، **الشمولي**، «المشرف على سلاسل البحث» السياسي، الميتافيزيائي (صنف نادر)، المجادلي، «المرشد»، مخيّب الآمال».... كان يجب إقامة صالة لصور نمطية، ولكن **اتنوغرافيا** المؤرخ ماتزال دراسة ينبغي التصدي لها.

(*) المصدر السابق.

(**) يكفي تصفح مجلدة من مجلدات (المنشورات السنوية في التاريخ) حتى نرى أن التاريخ الجامعي ـ أي التاريخ الذي نستخدم أعماله من أجل العمل في منصب ـ ليس سوى جزء بسيط من الانتاج التاريخي.

(***) انظر بول لويليوت: التاريخ المحلي والسياسي للتاريخ ـ حوليات ESC 1974 139 - 150 .

السؤال الثالث: إن كلمة مؤرخ كلمة مهزوزة تغطي صوراً عدة متشابكة:

- صورة **تقني** الماضي الذي ألف الماضي وأجاد مداولته وتفسيره وهو يقدر على بناء ماضٍ معين واستغلاله
- صورة خبير **ينظر من خارج** الى الحاضر ويحسن الانفلات من الأشياء ونضد آفاقها وهو يمارس شكاً منهجياً: وهذا يقود الى صورة حكيم، **ريبي** لايضل بصدد أهواء البشر.
- صورة **انسان متوحد** لايتصف البتة بانه انسان عملي، وقد بَعُد عن الأمور المهمة وعاش بمنأى عن العالم، مع كتبه، وبمنجى من كل مجازفة.

ومن البيِّن أن هذه الصورة التقليدية راسخة جداً في أعماق العقول ـ حتى ولو حاول بعض المؤرخين اليوم ـ عبثاً ـ أن يكونوا علماء ملتزمين سياسياً وقادرين على اعطاء دروس، إن لم نقل التنبؤ بالمستقبل.. إن المؤرخ هو بالدرجة الاولى **انسان يثير الحلم**: وهذا مايوضح نجاح (مونتايلو) MONTAILLOU أو **درب الملوك**. إن (ريشليو) RICHELIEU و(نابليون) NAPOLEON و (ديغول) DEGAULE آلات تدعو الى الحلم: ولا ريب في أن هذا الدور التخيلي للجسم الاجتماعي أكثر أهمية من مزاعم العلم المتوَهمة. والمؤرخ انسان اختصاصي بالمتخَيل: وهذا مايفسر وضعه الملتبس. ولقد عاد التاريخ اليوم الى تصوره الأقدم. انه «**ضرب من رواية تستعملها عقول بصيرة وذات فضول**» (اناتول فرانس). وان الروائي والمؤرخ يقومان تقريباً بمهنة واحدة ـ على نحو ما ألمح اليه (فاليري)(*): «أما التاريخ (بالمعنى المألوف)، فإنه جملة كتابات، وهي تُقرأ، وتسلي. ولكن أحداً لم يستطع تحديد الفارق بين الحالة الذهنية لمن يقرأ (بلزاك) ولمن يقرأ (ميشله). وعندي أن هذا هو كل شيء. انه الشعبذة ذاتها.

(*) في رسالة عن التاريخ إلى (اناتول مونزي) A.MONZIE. عام 1942 (انظر: الآثار ـ مكتبة لابلياد ج 2 1960 ص 1547 - 1548

وينتج عن ذلك ان شيئاً لايميز، من حيث التأثير الحاصل، وثيقة **حقيقية** عن وثيقة **زائفة** نحسب انها حقيقية...»

بيد أن (المذهبيين)، (والعلميين)، لايكادون يحبون التذكير بهذه القرابة الاصلية. فلكل جيل تصوره للتاريخ: إن المؤرخ اليوم اختصاصي بفرار الزمان، بحركية الاشياء، بتفاعل الاهواء البشرية: وفي عالم قلق، شديد الحركة، حيث تتغير الآفاق بسرعة، وحيث لايكاد المرء يؤمن بالتقدم، المؤرخ قد يمنح بعض كفالة استقرار، وأمن، وتقريباً نظام. ولعل ذلك هو الدورالاجتماعي الحقيقي للمؤرخ(*).

2 ـ ما يصنع المؤرخ

لنبحث الآن مايهب المهنة وحدتها، وما يشكل سمتها الخاصة (أن يكون المرء مؤرخاً **مدى الحياة**: ومن النادر أن يمسي المؤرخ فيلسوفاً أو شاعراً)(**).

1 ـ الفضول

إننا نعرف حق المعرفة كنه **حساسية** المؤرخ، كيف ينشأ هذا المزيج المعقَّد من التخيل، والطفولة، والانغماس في الماضي، وتجربة المعاش، وقدرة البصيرة، وروح الدقة والأثرة، والسخاء، والهوى الطوعي، مما تمثله حساسية المؤرخ ـ إن موهبة المؤرخ ـ إذا مابرحنا نجرؤ على استعمال هذه الكلمة ـ هي أمر سرّي. إنها

(*) تُرى أمن الضروري التذكير بان المؤرخ، من حيث مهنته، هو قريب من الاداري؟ إنه، على شاكلته، انسان نظام، وهو يذود عن نوع من النظام، يقدِّر ماللأمر، وماعليه، وهو يطرح أسئلة جيدة، ويميط اللثام عن فجوات المحاكمة، وهو حذر، ريبي... وكذلك فإن المؤرخ قريب من مهنة الجندي: ينبغي أن يكون قادراً على اعطاء الأمر، وعلى التكيف مع الموقع، وعلى التحليل، وعلى تقدير الموقف.(وقد كان المؤرخون غالباً إبان الحرب ضباط استخبار).

(**) ولكن شخصاً مثل (الفريد موري) A. MAURY. كان اختصاصياً بالحلم. والمؤرخ، بوجه عام، يتجه بالحري إلى السياسة.

نداء، جاذبية الماضي التي تلتزم بها حياة إنسان، تراكم أحلام، وارادات، وحدوس لامتمايزة، وانعكاسات، وحماسات: إن لدى كل مؤرخ تجلي، فيما يدو، «**ذاك الشيئ، الخفي، المبهم، والسامي الذي ينعش حماسته**» بحسب صيغة (سلفستر بونار). لنطلق اسم الفضول على هذه «الرغبة اللامعقولة» بارتياد الماضي، بفهم الاشياء الميتة، هذه القدرة على عشق كائنات زالت قبل مائتين أو ثلاثمائة سنة: إن المرء فضولي لما هو خفي، غامض، لامعيَّن، ممتنع على الفهم. يريد أن ينيره، ان ينظِّم اختلاطه، ان يصنِّف، أن يفسر ماجرى، ولكنه كذلك فضول لما يتصل بالآخر. انه يريد الخروج من ذاته ـ شأن الروائي: فهم الآخر، الحياة من **خلال الآخر**، السعي لفهم كيف كان يعيش، ويفكر ويحاكم، كيف كان يعيش ويفكر ويتألم يعقوب **انجر** ANGERS، أو رئيس معمل (لانجر) LANGRES ، فذاكم هو المؤرخ. وهو يُعنى أكثر مايُعنى بالجزئي، بالمتنوع، بالفرد، (حتى لوزعم زاعمون بدافع تشوّه ايديولوجي أو ادّعاء علمي المنزع، أو هوى سياسي انهم يطردون الفرد من التاريخ، وانهم يكفون عن الاستدلال دون خطوط بيانية، ونماذج، وذلك سرعان ماقاد الى بعض المبالغات). : «التاريخ حسبما يكرِّر **بول فاين** مشروع يحركه الفضول وحده»، ولا صلة للتاريخ بنشدان قوانين أو **صلات سببية**. ويسخر (بول فاين) قائلاً: «يمكن ان نسهب جدلاً عن التفسير التاريخي ودور القوانين والعلوم الانسانية في التاريخ، وعن نظريات التاريخ الكبرى، والحتمية التاريخية، الخ. ولكن ثمة واقعاً كتلياً وأولياً ينبغي ألا يغيب البتة عن البال: التاريخ رواية حقيقية، وإن التصور الذي يعتنقه المؤرخ عن [السببية] التاريخية هو بوجه الدقة عين السببية التي يعتنقها الروائي ويستخدمها في روايته: لذا فإن من المدهش ان تدرس كتب عدة السببية في التاريخ. لماذا في التاريخ بوجه الدقة؟ إن الفائدة الابستمولوجية لمثل هذه الكتب ستكون هي ذاتها لو أن مؤلفيها كانوا درسوا كيف يفسرون لنا طلاق (دوبون) أو حادث أن (دُوران) قد قضى عطلته الصيفية في الجبل بدل أن يقضيها على ساحل البحر. وبقول أبسط أيضاً: يمكن دراسة السببية في **التربية العاطفية** أو **البحث عن الزمن المفقود**»...

الفضول اساس المهنة. حب الصيد، والتتبع، امر أساس في هذه الحرفة: بيد ان هذا الفضول الذي يمتد الى كل شيء - كل شيء موضوع تاريخ - يفترض توافر كثير من الفطنة، من الحيطة، من مرونة الفكر، من الحصافة. يلزم - من اجل الحياة من **خلال الآخر**، فهم الآخر. توافر قدرات تعاطف، وضبط تخيل يجعلان المؤرخ جيداً. ان يكون المرء مؤرخاً انما هو حب الحياة في جميع أشكالها: بلذاتها واهوائها: المؤرخ ليس **وصياً** صارماً ولا غماً. بل هو محب للحياة، محب للطعام الجيد ولما بقي، يسعى إلى لذتة، ولا يعزل نفسه في غرفته. ونحن نعرف النكتة الشهيرة التي رواها (مارك بلوخ) عندما كان في ستوكهولم مع المؤرخ البلجيكي (هنري بيرين) H.PIRENNE: «ما أن وصلنا حتى قال لي: [ماذا سنرى أولاً؟ يبدو أن هناك داراً جديدة للبلدية]. لنبدأ بها. ثم أضاف وكأنه يود التحذير من دهشة : [لو كنت بائع عاديات لما فتحت عيني إلا على الاشياء القديمة ولكنني مؤرخ ولذا فإنني احب الحياة](*). لاريب في أن الاختصاص المسرف والمذهب أو الالتزام السياسي ينزعان بالمرء الى تضييق هذا الفضول وتحديد حقل الرؤية - إن المؤرخ المعني بالاقتصاد القياسي يحتقر في الغالب اللوحات الفنية ولا يكاد يجمع الاختام - ولكن فقدان الفضول على هذا المنوال أمر خطر على الدوام. وقد كان (الفونس دِبون) A. DUPONT يقول: (التاريخ باعث العزلة): لا مناص من الانتباه إلى هذا الخطر الموصول.

2 - القدرة المعمارية.

كان (لوسيان فيفر) يكرر: «**لاهندسة معمارية دون مشروع معماري، ولا تاريخ دون فرضية عمل**» وهذا هو الجانب الأقل بداهة، والأقل ذيوعاً من جوانب المهنة. المؤرخ يعيش أربعين عاماً: إنه يعمل بحسب مشروع،

(*) امتداح التاريخ طبعة 1974 ص 49

مشروعات، ويبني شيئاً فشيئاً آثاره (ماالكتاب إلا حلقة من سلسلة كتب). إننا نبني، أي نحلم، ونبدأ الإنجاز، وننجز.

ومن الثابت أن أكثر الخطط تنظيماً انما تبدلها ضرورات الحياة، فالمشروعات تُصلح، وتُهمل، وتُستانف. ولكن ثمة على الدوام بعض **اتساق** في عمل المؤرخ. بعضهم يحفر الدرب ذاته، وآخرون ينتشرون عبر مهمات عدة (الأمر الذي يوسع آفاق رؤيتهم، ويزيدهم خبرة، «وينتج» أحياناً تاريخاً أفضل). بيد ان المؤرخ يحيا فعلاً في الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمره بحسب حدوسه، بحسب اختيارات أولى (انظر فيما بعد الفصل السادس)، ووفق احلام مبدعة تشكل أساس (عمله المتصل): المصادفة، الحظ «ما من سياسي بدون حظ». لقد كان (ادغار فور) يقول: (لايوجد سياسي دون حظ)، الصداقات تُعدِّل في الغالب الاتجاهات الأولى، والمرء يغزو السلطة، ويذود عن أرض، والقدرة المعمارية تتحول، يرسخ المرء سلطانه، يبرهن على **روح مبادهته**، يؤلف «جماعات»... فالتنظيم والأمر والقيادة والتنسيق والتسديد كل ذلك يكون عندئذٍ جزءاً من المهنة ويفترض ميزات دبلوماسية، واستحسان المصالحة، وحس الاعتدال(*). وليس من السهل الحكم على عمل مؤرخ من جراء هذه الانعطافات ذاتها، وهذه التبدلات، وهذه الطفرات في المشروعات (وأحياناً تكون «اعمال الشباب» هي الافضل من الناحية الكيفية). إن إرادة بناء شيء ما هي أمر أساسي لدى كل مؤرخ: انها تعرب عن **ارادته البقاء**.

3 ـ قدرة التخمين

لايكتفي المؤرخ بتفسير مؤامرة، بالتفكير بالماضي، ولا يقتصر على مجرد الفضول أوارادة المبادرة. كان الاب (بوجه POUGET) يقول: **ليس الفهم رؤية**

(*) كان (بول لويليوت) يلاحظ (في المقالة المذكورة) أن المؤرخ (غير محترف)، المؤرخ المحلي، ينزع إلى التبعثر، فهو يتسكع ويتمتع بوقته، ولا يهتم إلا قليلاً بالتنظيم أو بالقيادة، وليس لديه في أغلب الأحيان مشروع متسق.

هذا الشيء ثم ذاك، الترتيب، ثلاثة نقط والنهاية، بل هو شعور مسبق بشيء ما»(*).

الشعور المسبق: انه ذاك الحدس باللّامُعيّن، بالغامض، باللاشكل، بالخفي الذي يشكل صعوبة المهنة: المؤرخ يسعى إلى ادراك مايقاوم. ادراك الكتيم، الضمني، ما لم يقل، يحلم بما كان، أو بما كان يمكن أن يكون، يحيا على حدوسه، على رؤاه التي تبدو ضرورية، يراكم ظنونه (إن **قدرة الحلم** قوام المؤرخ الجيد)(**) التاريخ في أغلب الأحيان شيء يشوّه، يصغّر، وإن جمع الجذاذات لم يكن البته بأفضل الطرق: لابد من التنمية، من تعمق شعوره المسبق، ابراز (أفكاره الغامضة)(***)، الاهتمام باللامرئي، بما لايقال، ولا يكتب، بما يأبق (قد تكون لما لايقال أهمية تساوي أو تبذّ ما يقال، ونحن نعرف ذلك بتجربة كل يوم في الحياة العملية). إن مواهب حدس المؤرخ أمور خفية: يجب أن يكون المؤرخ قادراً على **إثارة الحلم**، وليس ذلك مما يتحلى به كل إنسان.

4 ـ هم الموت

المؤرخ يهب لمهنته الكثير من ذاته: ولا بد من ان يعقد خبير الزمن الماضي هذا صلات متميزة مع الموت. المؤرخ يتناول الماضي، ينقّب في الاشياء الميته ـ حوادث، اهواء، أفكار ـ انه يحيا في الماضي، يسلخ عمره في بناء مذاهب فوق أمور غابرة، في (عكسه بالتفكير) زماناً لاعكوساً، زماناً لاينال، زماناً صائراً لامحالة الى الاخفاق، الى النسيان. ومن البيّن ان المرء لايستطيع دونما عقابيل قضاء عشرين سنة، أربعين سنة من حياته مع الماضي ـ حتى لو كان الماضي قريباً

(*) لوجيا LOGIA ص 10

(**) المصدر السابق ص 50

(***) الكتاب، أي كتاب، شيء مشوّه في الغالب. فالمرء يهمل إبان الطريق ـ بذريعة الصرامة أو فقدان الوقت ـ كثيراً من الحدوس والأفكار الملموحة، على الرغم من أنها اساسية، وثمة فارق كبير بين **الاحلام الأولية** ـ أو خلال البحث ـ وبين انجازه. ولو أن المؤرخ (كتب يوميات) عن أبحاثه لأمكن ادراك أهمية مايدع.

بالنسبة للمؤرخ المعاصر - في ان يحيا أحياناً (في الماضي)، (متسقاً) مع الماضي - وهو يزدري الوقائع الراهنة. إن صلة المؤرخ بالموت أمر اساسي. وإن مهنة المؤرخ تشوّه، تخلق ارتكاسات يسودها شعور فرار الزمان اللاعكوس. المؤرخ يتحلى بالشعور بالاخفاق النهائي، وهو ينظّم اشياء ميتة، إخفاقات، عالماً منتهياً، عالماً آيلاً سلفاً الى الغياب، الى الدمار. لاتاريخ دون قبول الفراغ، أي الغياب، الثقوب، الوفيات، وهي في الغالب أضخم من حالات الحضور»(*). وهذا الانغماس في الماضي الذي يدرسه المؤرخ يحيل على موته وهو بمعنى من المعاني استباق موته. إن (الكون من أجل الموت) ماثل سلفاً في كل مكان بالنسبة للمؤرخ، شأنه لدى الطبيب(**) المرغم هو كذلك على التعايش مع الموت. ولكننا نشاهد أيضاً، تمويهاً لهذا الجزء السرّي، امتناعاً طوعياً عن ذكر، أو عن افساح المجال لظهور غريزة الموت هذه: اوليس من العسير أن نعيش بقبول هذا الحدس عن الموت، وان رفض كل صلة عاطفية بالموت أمر يلازم المهنة التي تفرض بعض الاحتياطات.

إن غريزة الماضي، وحدس الموت، هما، وينبغي أن يبقيا (كما هي الحال عند الطبيب) أمرين مدفونين في الأعماق، بل منفيين. فالمرء يثق بالحس المشترك، يبدي الإيمان بأن ذاك الماضي هو أمر حاضر دوماً، وأن التاريخ خصب يتيح الفعل، وانه ممارسة: وإن حيل المؤرخ كثيرة ليموّه واقع انه اختصاصي بالأشياء الميتة. وان مهنة التعليم لتمتزج لدى المؤرخ بارادة القوة، بالانخراطات السياسية أو غير السياسية، كما تخفي هذه الغريزة المسترخية، غريزة الموت. وقد تتفاوت شدة غريزة الماضي والإحساس بالموت تبع اختلاف السن، وإن المؤرخ في الثلاثين من عمره قد لايشعر بالارتكاسات عينها، وبالحدوس وبالاستشعارات ذاتها عن الموت على نحو ما يشعر به المؤرخ في سن

(*) الفونس دوبرون: الحاضر، الماضي، التاريخ (في التاريخ والمؤرخ. أبحاث ومناقشات المركز الكاثوليكي للمفكرين الفرنسيين - حزيران 1964 ص 16).

(**) انظر (ج.ث. سورنيا) J.C.SOURNIA. اسطورية الطب الحديث 1969.

الستين. إن لدى كل مؤرخ ارادة مبدعة، **ارادة بقاء** خاصة، وهي تختلف باختلاف السن: فالمرء يريد في الثلاثين النهوض بأثر، أن يخلِّف طابعه، أن يضمن لنفسه بعض الديمومة، وفي الأربعين يشعر أحياناً بانطباع أنه ابتعد عن الحياة، وأن المهنة تلتهم جلَّ وقته وأنه يحيا بأوهام، وأن قدرته المبدعة تتضاءل؛ وفي الخمسين أو الستين يشعر شعوراً قوياً جداً بقلة الوقت الذي بقي، ويصبح متعجل صنوف التكريم، لامتسامحاً، يذود عن **حقيقته** في وجه الشباب. أجل، إن (صناعة التاريخ) طريقة للسيطرة على الزمان، ضرب من قسر الزمان: وكذلك يجب أن نفطن إلى تخوم هذا الخطاب **العقلاني** عن التاريخ. المؤرخ يلقى بعض الصعاب الخاصة لمواجهة الموت وفرار الزمان: انه ينجح في تشييد عالم عقلاني، مجرد، ذكي، مفهوم، ينجح بتفاعل خرافات، في الافلات من هذا الهم، وفي تحويل اخفاقه الى يقين، والإيهام بالأمن المذهبي. ولكنه يدرك ـ بالغريزة ـ بان عمله وكذلك عمل أسلافه ـ آيل الى النسيان، إلى الموت، وأن ليس بممكن الافلات بالتاريخ من أسر الزمان.

المؤرخ يموت مرات ثلاثاً: **موت إداري**، في الاحالة على المعاش، واستلاب السلطة، وفقدان (الميدان)». **وموت فيزيائي**، وهو الأقل خشية، الأقل إثارة للخوف ربما، وهو الظاهر الأقل اهمية، واخيراً **موت الأثر** الذي، مهما تكن جدارته، آيل الى البلى، الى الكفِّ عن ذكره، وهو الآكثر فاجعية. إننا عرضة للافهم نفسية المؤرخ وحيله المعقَّدة للافلات من مصيره، حيله ليبقى أثره، اذا **أهملنا همّ الموت المُلمَع اليه**: اذا وقفتُ (س) سنة من حياتي على القيام ببحث معيَّن فلا مناص حقاً من أن يكون لذلك معنى.

الفصل الرابع

مهنة شاقة

خطأ الظن بأن التاريخ مهنة سهلة: إننا نصطدم بألف عائق. وعندما يكون المرء شاباً ممتلئاً حماسة لايرتاب بوجود مثل هذه الشُرُك ذات الأهمية. ولكل مهنة المشكلات ذاتها بوجه التقريب ـ ولكن من الأيسر صنع تاريخ تافه أو تاريخ سيء(*). ولذا وجب اجادة الوعي بمقومات صعاب المهنة.

1 ـ ضغط الجماعة

يقع المرء في اغلب الأحيان في شرك مهنة مبهمة حيثما يترتب عليه بآن واحد أن يعلّم، ويوجّه، ويبحث، ويتعرّض لضغط انقلابي جد شديد: فالجماعة تضغط عليه ضغطاً قاهراً عبر المعلمين، والزملاء، والاصدقاء، (والمؤسسات)، والتمارين الجامعية، وطلبات المجلات، وأوامر الناشرين. انه يخضع لشبكة من الالزامات ويجد نفسه ـ منذ شهادة التخرج ـ ملزماً في الغالب على العمل المشترك، لأن منظومة **التعاون النقابي** ترفض المنعزلين: الباحث المتوحد لايحظى باستحسان ولا يستطيع الفوز بنشر منتظم، بل تظل (فرق العمل) تجهله. وان

(*) سيكون من الضروري جداً الاضطلاع بدراسة عن **المؤرخ التافه** وعن مصادر تفاهته: ماالتفاهة في التاريخ؟ وعندما يقول قائل على استحياء: (إنه مؤرخ تافه)، فأية أحكام مبيتة نقابية يعبّر عنها؟

المنافسة بين مؤرخي الجيل الواحد منافسة حادة، يرقب الواحد سواه، ويحسد غيره، ويؤكد الفوارق، ويبرز مجاله، ولكنه شاء أو أبى ينأى قليلاً عن جماعته. إنه يشاركهم الأهواء ذاتها، والدروب ذاتها، والارتكاسات ذاتها (كم من مؤرخ بين سنتي 1950 و 1970 أفلت من غواية التاريخ الاقتصادي؟). وإن المؤرخ ليود ان ينتج **مثل الآخرين** ـ الأمر الذي لاينجم عنه دوماً نتائج جيدة: إن خطر التبعية خطر كبير جداً (ومثلاً في الأعمال الجمعية (الرمادية)، و«التراكيب» اللاهثة بإسراف).

لاريب في أن بعض المؤرخين يحاولون المقاومة، ومناهضة الجماعة، ويرفضون (**الشائع العامي**). وهم يتحلون بفكر نقدي، ويثيرون انفصامات، ويعارضون التكتلات، والمعلمين: بعضهم يؤلف (عصبة منشقة)، فيُنظر اليهم على أنهم عقول بالية أو هدامة، (متمردون)، وهم يعتزمون الحفاظ على استقلالهم، ولكن كتبهم تقابل بالصمت (والصمت طريقة أنجع من النقد)، وهم مرغمون على دفع ثمن استقلالهم الذاتي، يحذرهم الآخرون(*): إن **اللاتبعية** أمر كريه ومن شان طريقة الانتقاء الجديدة ـ مع اسلوب **التأهيل** ـ انها تزيد إقلال فرص هؤلاء المستقلين. في وقت واحد تتعايش ثلاثة أو أربعة اجيال من المؤرخين(**) ـ وهذا مايفسر التباغض والمصادمات والخصومات بين الاطراف، وهي في الغالب تلجم معدل التجدد (كم من المجلات ترضى بنشر مقالات (غير متقيدة)؟). إن بعض المؤرخين الشباب يقصرون في الغالب حتى عن تأكيد ذواتهم، وابراز اختلافهم عن سواهم، وهم يضطرون للاستكانة (والدخول في الصف). وقد تنحرف المنافسة بين المؤرخين أحياناً: العطف يختص غالباً (الطلاب الصالحين)، العقول المؤاتية، فيكون المرء مرغماً، شاء أم أبى، على اتباع خطوط الانتاج (ان نشر مقالة يفترض توافر من يدعم، ويكفل،

(*) هناك (حالات تحريم). لقد حرّمت (الحوليات) خلال زمن طويل مثال (اريس) ARIES و (جيرارده) GIRARDET.

(**) نرى ذلك جيداً في التاريخ الديني حيث تطالعنا ثلاثة أو أربعة تيارات متعارضة.

ويحمي)، وقد يمتنع في الغالب نشر كتاب يسبح **عكس التيار**(*). ذلك أن مراقبات جديدة تنهض هنا وهناك: وان التفكير **الاتباعي** يزداد شيوعاً شيئاً بعد شيء.

2 ـ الاحتراف

تفترض ممارسة المهنة كثيراً من الجهد، والدبلوماسية، والمهارة. وليس للجميع مواهب واحدة، ومرونة واحدة. فالتعليم الجامعي يقوي الوثوقية، ويذيع المذهب الجيد، ويؤكد يقينيات، ويكوّن مريدين (يكررون حرفياً طريقة «المعلم»)، ويحيا في الغالب على معتقدات بالية، والاطروحة ـ هذه التحفة المتقيدة بالتقاليد الحرفية(**) ـ تؤثر تأثيراً كبيراً في ممارسة المهنة، والمرء يصطدم بلا اكتراث المشرفين (كان شخص من طبقة بيير ليون P.LEON يتذمر لأن استاذه المشرف لابروس LABROUSSE لم يسأله البتة هل هو متزوج وله أولاد)، ويصطدم بفقدان الوقت (المرء يضيع وقتاً كثيراً بين المجالس واللجان والندوات)، وبنقص المصادر (وذاك قلق تقليدي لدى «طالب الدكتوراه»). ولكن الواحد يفعل في الغالب **كما يفعل الآخرون**، يستسلم للعيش، ولا يقلق حقاً إلا على قيمة أعماله، ولا يكاد يفكر في مايفعل (ان الدراسات الابستمولوجية جدّاً نادرة)، وهو يخضع **للازياء** (اذا كان الآخرون يذكرون تراجم حياة فهو كذلك سيضع تراجم حياة...) إنه يمضي حيث يمضون، الأمر الذي يسبب نتائج كارثية للبحث في الغالب.

أما اللاجامعيون الذين يكتبون **للمتعة** فإنهم لايشعرون بمثل هموم الإحتراف هذه، ولديهم حرية سلوك أوسع، وهم يعيشون بمنأى عن **الأزياء** و المنافسة، ويجيدون كبح طماحهم، ويفيدون من الزمن المتاح لهم، ليسوا على

(*) سيزيد التأهيل المستند إلى أساس الأعمال حساسية هذه المشكلة الموصلة إلى المجلات أو إلى دور النشر.

(**) يترتب على الاطروحة الجديدة، من جراء إحداث التأهيل، ألا تغير القواعد تغييراً كبيراً.

عجل من أمرهم، يتمهلون كيف شاؤوا. «إن المؤرخ المحلي الرائع في بحبوحة الزمن يؤمن بالصبر، وبالتدقيق في الجذاذات، وبـ (الحادث الصغير) (...)، وهو سيء الظن بالتفسيرات السهلة، وبالمشكلات المحلولة في الظاهر، أو المحدّدة تحديداً مسرفاً، والمعيّنة تعييناً مسرفاً(..) وهو لايتساءل عن مشكلات تتصل بدلالة التاريخ أو المنهجية، ويشمئز من الخصومات المذهبية أو الفلسفية ومن نظريات التاريخ المجرد»(*). إن لضيق أفق المؤرخ اللامحترف فوائد في بعض الأحيان: إنه يبين مايمكن أن يصنع المرء حين يكفّ عن هموم الاحتراف ويبتكر قواعده الخاصة، وينعم بلذته دونما قسر(**).

3 ـ صعاب التدريب

إننا لانكاد نجرؤ على الحديث عن هذه الصعاب: فتدرب المؤرخ تدرب شبه حِرَفي، نوع من نقل شفهي يتيح تعلم حيل المهنة، شعبذاتها: وان لجان الحكم على الرسائل سرعان ماتعرف هل يتحلى الطالب ببعض موهبة. أجل، عندما يكون الانسان شاباً فإنه يشعر ببعض العناء لتحديد اسلوبه (والواقع أن أية مقالة في التاريخ لاتشبه مقالة اخرى، سوا ء من حيث التصور أو العرض أو الاسلوب)، انه يعاني من فقدان التوجيهات الجلية، والاحتكاك المستمر مع المشرفين الذين لايملكون دوماً سعة من الوقت، (يترتب على حلقات البحث ان تعالج ذلك، ولكن ينبغي ألا تضم اكثر من عشرة اشخاص)(***). وكذلك فانه

(*) بول لُويلُيوُت: التاريخ المحلي وسياسة التاريخ. **حوليات** 1974ص 139 ـ 150

(**) وعلى العكس، يعاني اللامحترف من عزلته وضآلة معلوماته (العرضانية) ودعمه ولا يُطلب منه (وهذه خسارة أحياناً) بذل جهد مذهبي ولا نقل معرفته. يعوزه في اغلب الآحيان غياب المشروع الراسخ، وهو يبدّد ذاته، وكل شيء يستهويه.

(***) كان (دوروري) DURURY يقول سنة 1868 ان على المحاضرة في (المدرسة العملية للدراسات العليا) أن تقدم (**هذه النصائح الفردية التي تمثل في الغالب السر الوحيد للأعمال الخصبة**) وإقامة **صلات شخصية** بين المعلم والتلميذ. يجب على المعلم أن ينقل للتلميذ (على نحو مباشر أعظم وأكثر اتصافاً بالسمة الشخصية اساليبه في التأليف والنقد والعمل). ولكن هذا التوجيه الفردي يستلزم الحماسة والوقت والصبر. و(**هذا التوجيه العملي والمباشر والشخصي**) يصبح بطبيعة الظروف أندر اليوم.

يعاني، شاء أم أبى، من الخصومات المذهبية أو من اللغة (ومما يثير معاناة كبيرة أن يعين موقعه ضمن حشود الاطراف). وهذا مايفسر دون ريب وجود عدد مسرف من الأعمال اللاهثة، الناقصة، ضئيلة (التفكير)، غير الكاملة: البحوث التاريخية تستلزم في الغالب استمارات تمهيدية لاتتحقق دوماً: الاطلاع على المستحدث، التجدد، ليس ذلك بالأمر الميسور(*). المهنة (تولّد القلق)، والمرء يحيا في اللاطمأنينة، ويعمل غالباً دون تبصر، دون برنامج جاد، دون طريقة ذكية، دون رؤية شاملة ـ وهذه الفوضى (المألوفة) ترجع الى حد كبير عن قصور التكوين الأولي. وإن مسابقات التخرج تجيد التعليم على حسن ادارة الوقت، وعلى (تحديد برنامج)، ولكنها تنسى باسراف في الغالب المبادئ الجيدة. والمرء لايتعلم ـ وأنى له أن يتعلم؟ ـ اختيار الموضوعات الجيدة، طرح **الاسئلة الجيدة**، التفكير في ماهو مهم: وهذا مايقود في الغالب إلى تاريخ أعجف، مجرد، معقَّم، مشوَّه. كان يجب تعليم فن اللافهم، فن **تعقيد** الاشياء: المؤرخون يبالغون أحياناً في نسيان **واجب التعقيد** (لأنهم مضطرون للتبسيط والاختزال من أجل التدريس). وقد كان (فاليري) يلمح الى «هذه الحكمة الاخلاقية التي تبدو لي أنها تعرب عن نوع من واجب الفكر: كل مايبدو لك جلياً أو بديهياً في النظرة الأولى، حاول ان تجده «غامضاً»(**):

إن تدريب المؤرخ ينبغي أن يدور حول هذه الحكمة. ينبغي الارتكاس على المبالغة في تبسيط التدريس، اذا الأمر ليس ان نفسر مهما يقتضي الأمر ـ وهذا مصدر إفقار ـ بل انه أمر تعقيد يبدو بسيطاً، أملس، سواء تناول الموضوع تاريخ 18 ايار أو تاريخ الولادة: إن عمل المؤرخ هو إفهام ألاّ يوجد **تفسير** واحد.

(*) هناك **تكاليف الصيانة** التي يميل الباحثون باسراف إلى إهمالها: ينبغي على مؤرخ الاقتصاد أن يجيد الاطلاع الحديث على تطور النظريات الاقتصادية وعلى التيارات الفكرية الجديدة بل يجب عليه أن يكتب، اذا استطاع، مقالات في النظرية الاقتصادية.

(**) خواطر تتعلق بي 1943

يتضح تماماً ايان يتجه تدريب المؤرخ، اذا أردنا الافلات من الرتابة: ينبغي أن نعلّم ـ ولكن بأية تمارين؟ ـ الحلم بما يراد صنعه، ونعلّم توجيه الاحلام(*)، وبلوغ حدوس جيدة، وبناء الموضوع. ينبغي كذلك تعليم اجتناب **إملال** القارئ من جراء الغلو المذهبي أو إرباك الإعداد أو احتقار القارئ(**) ... ولكننا ندرك مدى تعقد هذا التدريب، وكيف انه يتخطى دراسة المصادر وتفسيرها: لنكرر القول انه في اغلب الأحيان تدريب ضحل التفكير وسيء التوجيه. بل انه قد يشوّه أحياناً الحساسية التاريخية ويشوّه التخيل.

4 ـ الأوهام المهنية

لامناص من أن نخصّ في كل مهنة قسطاً من الأوهام المهنية: ولا تنجو مهنة المؤرخ من ذلك. فأوهام المؤرخ عن ذاته أوهام كبيرة في الغالب، وهو يود أن يكون بآن واحد مربياً جيداً، وباحثاً جيداً، ورئيس فرقة عمل جيد، ومؤرخاً جيداً، و (موصلاً) جيداً: ولكن من البيِّن أن كثرة هذه (المهن) تجعل الحمل ثقيلاً مسرفاً في بعض الأحيان فيساء النهوض بهذه المهمة أو تلك ـ أو انها تتحقق بصورة تافهة. ان الظن بإمكان ان يكون المرء استاذاً جيداً، وباحثاً جيداً ـ حتى ولو كان ذلك خطأً ـ انما هو وهم شائع، وهو وهم ضروري لممارسة مهنة جحود. بيد أن المرء يحسب في الغالب أيضاً انه ياتي بالجديد منذ أن يعيش على فرضيات أو وصفات تافهة، سيئة التحقق، أو بالية، يحسب انه ينهض بأعمال مهمة تستحوذ على عناية الطائفة العلمية بينما لاتثير هي سوى اللااكتراث المهذب للأقران والاساتذة المشرفين، والمرء يحيا في نوع من الحلم، ويظن أن من الممكن المضي قدماً ـ في حين أنه اختار فجوة جد ضيقة، أو بحثاً مثقلاً بالدراسات، أو (دون طائل). **فالأوهام عن الذات** اشياء مألوفة في المهنة: المرء يفعل **مايفعل الآخرون**، ولكنه يفعل بأقل جودة من الآخرين. انه يحتقر

(*) انظر بصدد الحلم الفقرة 4 من الفصل الخامس القادم

(**) انظر بصدد الملل: الطريقة في التاريخ 1986 ص 110

سعة المعرفة (أو أنه يسيء تطبيقها)، ويستسلم لنظرات مجازفة وينشر اعمالاً ذات معدل بليٍّ سريع(*)، يؤمن بالأفكار العامة ويقدم تراكيب سرعان ماتنسى... ونحن نرى بوضوح أسباب هذه الأوهام: المرء يظن في كثير من الأحيان أن كمية الساعات أو عدد الجذاذات المركومة تمثل قيمة العمل ـ ولا يجرؤ أحد على التحذير من هذه الظواهر ـ وفي كثير من الأحيان ينجز المرء أعمالاً (اتباعية) وفق (زي) المعلم، وهذا أمر خطر، أو أنه يؤمن ايماناً ساذجاً بفضائل التاريخ (الملتزم)، ويدرس الاضرابات أو حركة الكوزيين GUESDISTES في منطقة معينة ـ الأمر الذي لايكاد أن يكون (ذا جدوى) إن التبعية ضعف. وهي قلَّ أن تنتج أعمالاً جيدة، وهي في الغالب ينبوع طماح مجهَض وأعمال مهملة»(**): ينبغي تحذير المؤرخ الشاب.

5 ـ العزلة

المؤرخ ذو عزلة خطرة. انه وحده دوماً ـ ولكنه لايعرف ذلك ـ وان مايجنيه من سواه قليل النفع أحياناً (حتى ان توجيهات الاستاذ المشرف قد تكون غير موائمة أحياناً). فالعزلة شر لازب للمؤرخ(***): انه وحيد مع مواده، مع محفوظاته، مع جذاذاته، ومن العسير عليه أن يلقى صديقاً يناقشه تطور بحثه مناقشة حقيقية، يناقشه ارتداداته، ابتغاء فحص معمارية العمل، ووثوق الفرضيات، فهو وحيد يفكر في تخوم المشروع، وطرائفه و(حتى في حالات العمل المشترك، انه وحيد مهما تكن المواءمات). ومن الافضل معرفة ذلك

(*) انظر بصدد البلى: الطريقة في التاريخ ـ المصدر المذكور ص 39 - 43

(**) إن دراسة الرسائل المهملة ـ وأسباب اهمالها ـ ستكون بلا ريب مفيدة جداً لايضاح بعض وجوه مهنة المؤرخ.

(***) الاساتذة المشرفون يحمون، ويشجعون، ويمتدحون. ولكن لهم بحوثهم الخاصة، وهمومهم الخاصة، ومراكز اهتمامهم الخاصة. ولقد مروا بالتجربة، وبلغوا فلسفة معينة (المرء سيخلص من المأزق دوماً)، وهم يتحلون في الغالب بمزيد من الحذر ومزيد من الوساوس فلا ينخرطون حقاً في النهوض بمهنة المرشد.

مقدماً. ان المهنة، على الرغم من الظواهر، مهنة **معتزلة** حيث لانكاد نلقى عون أحد، إلا فيما ندر. وهذا يقتضي بعض تحديد، بعض **تصلب**: يبقى المرء حبيس الفرضيات، بعض الاحكام المبيّتة، لايستطيع اقامة اتصالات، إقامة جسور ضرورية، ويصبح لامبالياً بالتجديدات الصادرة عن الآخرين. بيد أن هذه العزلة، اذا أُحسنت ادارتها، قد تكون خصبة: يترتب على البستاني اذا اراد أن تسمق شجرته علواً عندما يجفّ النسغ أن يشذب بعض الأغصان. وإن نوعاً من الزهد لايضر من أجل صنع تاريخ جيد. ولكن هذه العزلة قد تنجب شيئاً من الكبرياء أحياناً. (كان اناتول فرانس يقول: «في كل علم قاع من الزهو والجرأة المرّة»، تنجب بعض انزواء طوعي ينكفيء فيه المرء على ذاته، ويكون لامبالياً بما يجري حوله.

الفصل الخامس

الحوافز

المؤرخ حِرَفي: هناك جانب (يدوي) يسرف الباحثون في نسيانه. إن لديه نظره ثاقبة تميز الكتاب الجيد، أو الوثيقة الجيدة في كومة المحفوظات، وهو نهاره كله(*) ينسخ، ويصنّف، ويكتب بيده، يتذوق الحادث الجيد، المتقن(**)، الأملس، الدائم، ويتحلى بخصال الذمة، والأمانة، والنجّار. ولكن النجارة لاتفسر كل شيء لدى المؤرخ. ولذا ينبغي المضي إلى أبعد: إن ما يقوّم المؤرخ، المؤرخ الجيد، هو شيء أعقد، وأكثر لايقيناً. ونحن لانملك، باستثناء (ميشله)، يوميات مؤرخ تحكي لنا أفراحه، وصعابه، واحلامه، وعواطفه، وهذا مؤسف غاية الأسف(***). ولكن في وسعنا أن نحاول ـ اعتسافاً ـ ذكر بعض صوى تبين **حوافز**، ومن ثم، **تناقضات** المؤرخ ذاتها.

(*) وهذا أمرٌ متعبٌ غالباً، ومملٌ. لنذكر تذمر الراهب الناسخ (سان اينيان) (SAINT - AIGNAN) : (**انتبه إلى أصابعك! لاتضعها فوق كتابي! إنك لاتعرف ماالكتابة! إنها سخرة ساحقة: إنها تحني ظهرك، وتُظلم عينيك، وتكسر معدتك وضلوعك...**).

(**) يقال عن مقالة جيدة (**انها صناعة يدوية**)

(***) يبدو أن مؤرخاً لم يكتب يوميات تتناول هذه الابحاث كما يفعل الاتنوغرافيون (لنذكر يوميات الاتنوغرافية (جانّه فافرت ـ سعادة) JEANNE FAVRE SAADA. وإن (محاولات تاريخ ـ ذاتي) 1987 هي: ذكريات (أُعيد بناؤها).

1 ـ الحافز الأول: الارادة

تفترض صناعة التاريخ ارادة حازمة موصولة، وان عمل المؤرخ، كل عمله، هو بالدجة الاولى إرادة، وهو يستلزم تضحيات ـ بالوقت وبالحياة الشخصية(*) ـ يريد المؤرخ **وقف حياته** على...، يريد التكامل، تحقيق ذاته في (مسعى)، في (مشروع). يريد أن يخلّف طابعه، ان يصارع الزمان الهدّام، أن يؤكد **اختلافه** في وجه الآخرين، أن يتقدم صفوف القطيع. انها **إرادة ـــ إرادة** تفترض توافر تربية الارادة: سنوات كثيرة من القراءات، ومن التفكير، وتراكم الملاحظات، والتجربة المنهجية، والاحلام الموجّهة. وانما تفترض السيطرة على التوترات ارادة دقيقة مبرمجة قاهرة ـ ونحن لاننتهي من تجميع ضروب (المعارف).. بحسب إتباع خط ما بحزم، ولا مندوحة من تخطي فترات الجفاف، والتراجع، واللايقين، يجب أن يستغل المؤرخ (حدوسه) وأن **يبدي المهم**، والدائم... أجل إننا لانعرف دائماً ماسينتج عن مثل هذا الجهد، بل اننا نكفّ في لحظة ما عن البحث (عن معرفة أيان نمضي)، ولا نكون مطمئنين البتّة كل الطمأنينة على أننا نسير في الطريق الصحيح، وأننا نصنع **تاريخاً جيداً**. ولكن هذا اللاتعيين يشكل جزءاً من متعة المؤرخ ـ إنه **يلعب لعبة** ـ ويزيد لذة الصيد. وعندما يكون المرء شاباً يكون متحمساً، ويبدو له البحث مغامرة فكرية جديدة، ويحلم أحلاماً جميلة، ولا يتساءل عن ذاته إلا قليلاً، ويحب ان يلعب بالأفكار، أن يواجه الآخرين. وانما حياة المؤرخ الداخلية هذه عنصر رئيس، سيالة من أنصاف ـ الارادات، من الاحلام الحرة، من الحدوس اللاامتمايزة، من الصور المختلطة: وبذلك تتعلق صعوبة البحث وجدته.

2 ـ الحافز الثاني: الطماح

المؤرخ انسان طموح بالدرجة الأولى. وهو يريد الإقدام، والتجديد، و**كسر السوق**، ومكافحة رتابة النظام (أو النظام الفرعي): المؤرخ يريد أن يأتي

(*) لقد اسهبوا في الحديث عن (التضحيات) التي تستلزم الاطروحة، وهي تحفة حِرفية.

بجديد،أن يخلق طابعه، (يعطي استطاعته). وان طموحه شيء غامض، نوع من حلم موصول ذي أشكال متعددة هي في الغالب لامتمايزة: طماح تفسير، طماح تعليم الحقيقة، طماح حياة عصرية، طماح تجرد (ابتغاء الاختصاص)، طماح بناء أثر، ونحن ندرك جيداً هذه الأشكال المختلفة. المؤرخ طموح لذاته وللتاريخ، **لمجد التاريخ العظيم**. ولكننا ندرك بيسر أخطار الانعطافات، اخطار الانزلاقات: الطماحات العصرية، تذوق السلطة، والإجلال، ومجد وسائل الإعلام، كل ذلك يفسر في الغالب معارك الفرقاء، روح الجماعة، معارك التركة(*)، **شعائر** الرعاية والنبذ (ان دراسة اتنوغرافية عن التاريخ ستكون نافعة جداً). المؤرخ يحلم بان يكون رئيس مجاله، ان يكون له مريدون يتملقونه، أن يكون (مستشار الأمير) بل أن يلج السياسة(**) ـ أن يكثر عدد النسخ المطبوعة عن عمله ـ ويحلم كذلك بالقضاء على منافسيه، على اعدائه. ولكن حمّى الطماح هذه تمهد في الغالب لحدوث خيبات أمل شديدة: التكريم لايأتي دوماً، والطماحات المذهبية قصيرة الدوام، وان المرونة المسرفة، روح التألب والتبيعة عرضة للإخفاق: كان (دوميز يل) DUMEZIL يصرح سنة 1986: (إنني لأحرص البتة على أن يكون لي تلاميذ. فقد عرفت معرفة كاملة عدداً من التابعين ومن الأشخاص الملحقين بالمدرسة ممن يحذون حذو المعلم بحيث اعرف أن ذلك لايفيد كثيراً...).

إن الحذر يوجب الطماحات، بل وسترها (كما أن من الخطر في الارادة ابداء الغلو في الطماح، فمن الجائز أن يعترض س السبيل أو أن يغفل ع الدعم). ىن التحلي بالطماح يفترض توافر بعض مهارات يومية، موهبة المصالحة ـ بل والمكر ـ لشدة سوء الظن داخل «الوسط». ولكن الطماح ضروري للمؤرخ:

(*) لنذكر معارك تركة (سيميان) SIMIAND بين سنتي 1970 ـ 1973 (التركة! إن هذه الكلمة ترجع إلى المفردات الريفية: الأمر أمر الذود عن الأرض) (ب. لويليوت).

(**) كان المؤرخون في عهد الجمهوريتين الثالثة والرابعة ينتمون في الغالب إلى مجلس الوزراء ـ ويغدون وزراء (من أمثال رامبو RAMBAUD وهوناتو HONATOUX).

فالمؤرخ اللاطموح ـ منذ البدء ـ يطرح دوماً بعض المشكلات(*) تُفترض التفاهة دوماً). وان مايلفت انتباه الملاحظ في الغالب هو بالحري لاصَرَد المؤرخ، ورفضه أن يكون طموحاً لاختصاصه، وان يتصدى للمشكلات المهمة، وفقدانه روح الإقدام، وانكفاؤه على بستانه: كل شيء كما لو ان الطماح يبدو له لعبة نافلة وخطرة (ما لم أصنع، سيصنعه آخرون على نحو أفضل). بيد أن موقف **الانسحاب** هذا هو الأكثر انتشاراً شيئاً بعد شيء، ونحن لانعرف لماذا(**) ـ الأمر الذي لايخلو من نتائج تصيب التاريخ اليوم.

3 ـ الحافز الثالث: اللذة

أجل، إن الكلام على اللذة مستهجن: فالمرء يسيء القصد حين يتحدث عن اللذة. من ذا الذي يستطيع الاعتقاد بأن عالماً يشعر بلذة؟ ومع ذلك فإن مايحرك التاريخ، ويحرّك العالم، هو حقاً ارادة اللذة: الرغبة مركز كل بحث(***). مالذة المؤرخ؟ ولماذا تُخفى أو تُنكر؟ إن المؤرخ **انسان لذة** (حتى ولو كانت هذه اللذة مشوبة بالأشواك أحياناً): من الذي يعرف لذة اكتشاف مشكلة، أو طرحها صحيحاً، أو تتبع مجراها؟ إن حماسة البدء شيء معروف جداً: فالمرء ينشّط تخيله، ويشرع بالصيد، ويزيد توقع الكشوف ولا يقين

(*) عندما نكتب حاشية رثاء يترتب علينا التساؤول دوماً عن طماحات الفقيد.. المعلنة أو الضمنية.

(**) يرجع هذا الموقف بلا ريب إلى الفردية التقليدية في المهنة، إلى أزمة (الجامعة) منذ 1968 ، إلى رفض تقديم (التضحيات) الضرورية، إلى صعوبة تحديد المؤرخ منزلته في فترة المنافسة الحادّة، إلى هم الحفاظ على استقلاليته (كل الناس لايتحلون بروح الجماعة).

(***) يتحدث المؤرخ قليلاً عن لذته ومتعته ـ وكذلك عن متاعبه. وإن مظاهر التاريخ (العلمية) المزعومة تطرد صورة اللذة: وقد يبدو الاقتناع بأن التاريخ علم (موضوعي) يستخدم اجهزة رقمية، بل حتى لغة رياضية، قد يبدو لبعض الباحثين أنه أمر لا يأتلف مع مفهوم اللذة. وهم يحسبون أن السمة العلمية توجب نوعاً من الوقار. ويبدو أن لذة الصيد، والجمع، لذة (سلفستر بونار)، جديرة بالازدراء.

التقصي اللذة الخاصة بالصيد، وهي تتخذ أحياناً بمثابة غاية بذاتها. أجل، تبدأ لذات أرشد، أكثر معقولية: لذات صغيرة متراكمة تتيح لذة فكرية، لذة بناء اطروحة، بناء شيء مغاير، مناقضة الجيران (بل فضح اخطائهم). واخيراً تنشط لذة الكتابة ـ قد يجلب فعل الكتابة متعاً ـ والتنظيم، والمحاكمة، والعرض، والتأثير في جمهور: لذة ذات وجوه عدة، تتهددها على الدوام البلاغة أو الوسواس.

إن لذة المؤرخ قد تصدر عن ينابيع أرهف وأعقد.

1 ـ أليست الرغبة اساس لذة المؤرخ بالذات، ولذة نسيان، لنقل (ازدواجيته) وهو يحيا في الماضي؟ ان التاريخ قد يكون (عاصما) من تفاهة اللحظة الراهنة. وقد يشعر المؤرخ فوق ذلك بلذة الهيمنة على الزمان، وأن يعيش ويفهم ماضياً راضخاً ومبسّطاً ـ بينما يصعب الامساك بالحاضر، والحاضر أشبه باللامفهوم: هناك شعور بالتفوق السهل، وهو يفسر بعض الاسراف في عقلنة الماضي. واخيراً، يجب أن نلحظ جانب براءة اللذة، هذه اللذة الخام المسالمة، لذة الاكتشاف، والجمع، و (الإجادة): تراكم جذاذات يتيح العثور على نوع من سعادة مسالمة، دائمة، دون (مشكلات).

2 ـ ثم ان المؤرخ كاتب، يلعب بالأفكار، بالمحاكمات، وهو يفكر كتابةً: إن ألعاب الكتابة، وإرهاف المحاكمات، ينبوع أول للذة المؤرخ الذي لايتصف، من حيث طبيعته، بأنه إحصائي، رجل أرقام، وليس عالم اقتصاد، ولا انساناً عملياً.

3 ـ المؤرخ انسان يعيش بالحدوس، ويشعر بلذة فهم لعبة المصالح والأهواء، واكتشاف الخيط الموجّه لـ (مؤامراته)، لعمل في مادة حية ـ والأبنية الفكرية أمور ثانية وثانوية. إن الارهاف النفسي، والغريزة الضرورية لتخمين لعبة الشخصيات أو الأهواء الجمعية، الذوق، حدس الدقيق، والمضمَر، واللاعقلاني، ذاكم مايكفل لذة المؤرخ ويقوي استمراره.

4 ـ للمؤرخ لذّة أن يكون غيره، وان يكون ذاته، أن يكون بآن واحد خارجاً وداخلاً، إنه مملوء، مفتون بهذا الماضي، بهذه الأشكال، بهذه

الشخصيات الغابرة ـ حتى بهذه الشخصيات الغامضة التي تقدمها المخفوظات: يضاف الى لذة الفضول البسيطة شكل أرهف من اللذة الجمالية، القريبة من لذة الروائي الذي، هو أيضاً، ذاته وغير ذاته. وهذا الانصهار الخيالي، هذه القدرة على التعاطف، يسوّغان لذة المؤرخ الغريزية تسويغاً شرعياً.

5 ـ كذلك ينبغي أن نأخذ بالاعتبار لذة البستاني الشديدة جداً (ولكن من ذا الذي يجرؤ اليوم على الاعتراف بأنه بستاني؟)، لذة من يجيد حرث مايملك، وتمهيد دروبه، وتشذيب عروشه: ينبغي اعتبار حصة عاطفة التملك، تذوق الحرفة اليدوية، إرادة الكمال، الطمأنينة النفسية، السكينة الناجمة عن البستنة، وإن المؤرخ الجامعي هو في الغالب جد قريب من واسع المعرفة المحلي الذي يجيد ضبط طماحه، ويلفى في هذا التحديد متعة رهيفة. إن اللذة الجيدة الضبط شكل من أشكال الحكمة والاقتصاد، وهي مرغوبة لذاتها.

وبديهي أن شدة هذ الفويرقات في اللذة تختلف أشد الاختلاف تبع الأفراد: السن تلعب دورها (ليس للمرء لذة «كتابة التاريخ» في سن الثلاثين مثلها في سن الستين)، وكذلك بحسب المهنة: فمن الثابت أن كيفية اللذة ترتبط بما يُنتظر من مهنة أو من (تسلية). فمن الجائز في مهنة ان نأمل الفوز بسلطة، بمهارة، بامكان سيطرة، و(تأسيس مدرسة) وإن حساب الطماح يقود الى لذة متميزة كيفياً تميزاً كبيراً.

إن درجات اللذة الخاصة بالمؤرخ ترتبط بـ (البيئة)، بالسمة الخاصة بالمؤرخ، بلذة أن **يعترف به الآخرون**، أقرانه، أساتذته، ان يلج صفوف مدرسة، معبد، (وسط): فهذه العواطف، مشوبة بالتعاظم وبالاقطاعية، تضاف إلى لذة البحث والمنزلة المهنية، والخصومات، والتألب فتُدخل الآسر، الاحتمالي، اللايقيني، (أتراني موضع إعجاب؟ هل أنا مفضَّل؟ هل أنا «في الخط»؟). بيد أن ذلك كله لايمثل سوى جوانب ثانوية. وكذلك يجب ألا نضلَّ بصدد شدّة اللذّة: فلذّة المؤرخ قد تكون لذة أن **يسأم**، أي لذة ثابته، رهيبة، مسالمة، مطمئِنة، تكرارية، دائمة، ويعلم الله كم تذخر البحوث التاريخية بالبحوث الطويلة،

الشاقة، الدقيقة، المملَّة، ولكنها قد تجلب بعض المتعة الناعمة، الآمنة، الموصولة، شبه المغلقة، ولها جاذبية كبرى: ان شدة اللذة الناجمة عن هذه (الأعمال البنيديكتية) قد تعدل شدة اللذة الناشئة عن البحوث المحمومة أو الشغوفة أو المجازفة أو (الطائشة) التي ينهض بها ادعياء التجديد أو الذين يحسبون انهم **مغايرون** لسائر المؤرخين. والحق ان إرادة الإقدام، **وإرادة العيش**، امران مختلفان. ولكن سيكون من الخطر مقابلة لذة (البنيديكتي) الدائمة بلذة المؤرخ المجدد (العابرة): كل واحد يستثمر على طريقته، فثمة من يستثمر ويشعر بلذة **الاكتناز** والآخر يبحث عن لذة المضاربة ويحب لايقين اللعبة ويتظاهر بالمجازفة، وذاكما شكلا السيطرة على الزمان.

4 ـ الحافز الرابع: الحلم

يتظاهر كل انسان بالظن بأن المؤرخ يقتصر على الاستدلال، وان عمله يخضع لقوانين دقيقة يكفي أن يطبّقها منهجياً. ولكنها نظرة تفقر الأمور: إنها تنسى القسط الكبير للأحلام التي تكتنف العمل قبل إنجازه، واثناء إنجازه، وبعد إنجازه. فالأحلام تدعم الفكر، وتحدّد الاختيار، ولكننا لانكاد نجرؤ الكلام عليها(*) بدافع الوسواس أو المذهب. ولا مندوحة من حلم المؤرخ: انهم يؤكدون عبثاً ان التاريخ علم، فالحلم يلازم كتابة التاريخ، والمؤرخ يحلم بتاريخه، بمشروعاته، بشخوصه. الحلم التمهيدي أمر ناجع، وهو يربط العناصر المبعثرة، اللايقينية، ويوسع مدى الرؤية، ويتيح دفع القسر: الحلم يتيح التأمين الضروري، يحل المشكلات، ويتيح اختيار (تاريخه)، (موضوعاته)، أن يتعمق، وينقِّب، ويستخلص المهم. انها تقنية تساعد التاريخ: فهي تبين، وتثير، وتقريباً تبرمج. الحلم دعوة للعمل، لارتياد زوايا الماضي: نحلم بصورة الأمس ـ إن مادة التاريخ تفترض توافر الحلم حتى تُفهم: الحرف، كتاب العقل، الدعوة، بيان

(*) ان التصورات العلمية أو (السياسية) لمهنة المؤرخ تُبعد، بطبيعة الأشياء، عن تحليل المتخيل عند المؤرخ: وهذا، يفسر ندرة الشواهد المتصلة بأحلام المؤرخ.

الحساب، دفتر الملاحظات، كل ذلك موضوع حلم، غذاء حلم. إننا نحلم بالشخص الذي ندرس سيرة حياته، نحلم بما كان يشعر به، بأفراحه واتراحه، بما كان يحياه. الحلم يوسع التخوم ويؤخرها، يتيح اكتشاف علاقات جديدة، اختراع آفاق، يعمق الفارق بين المعرفة المكتسبة وما يبقى من الواجب اكتشافه، وهو يرمم مايظل خفياً، ويمسك بتلابيب مايتوارى، ويتخطى التفكير. الحلم يقدم التخيل الضروري من أجل تاريخ آخر من جراء كونه (لاعاقلاً). إنه يضخم الحدس بماضٍ (حسي) آخر، ويزعزع اركان (منظومة) خفية من الادراكات المتوهمة، من الصور الحسية الجاثمة خلف كل تفكير منتظم. وهذا **الحلم الارتيادي**، المتعدد الأشكال، الممهِّد لعمل المؤرخ ذاته، لبحثه (المبرمج)، هو الذي يحدّد اختياره، وانجازاته، ويشكّل جزءاً رئيساً من عمله ـ حتى لو أنكره: إن الأحلام بالماضي لايمكن فصلها عن كل **فاعلية** تاريخية: حلم بموضوع، حلم بكتاب، بل بمقالة، قبل فتح اصغر اضباره ـ ولعل هذا الحلم يمثّل القسم الأكثر أهمية في (الابداع) التاريخي (ولكننا مازلنا بحاجة إلى «تاريخ أدبي للحس التاريخي»...). وهذه الاحلام تواكب المؤرخ طوال بحثه: احلام طليقة تتصل بالوثائق، بالمصادر، بدروب الماضي ، بالحياة اليومية السابقة، احلام تنظيمية، بنَّاءة تدعم الشروع بالعمل (حلم المرء بكتابه قبل بدء كتابته): احلام ذات دلالة تشدُّ أزر الارادة (**إرادة** المؤرخ هي إرادة حلم)، تمنحه الاستمرار بمعنى من المعاني: إن جملاً تامة من الأحلام المتفاوتة النشاط تتصل بصنع التاريخ(*).

وثمة أحلام أخرى معقَّدة: انها الأحلام التالية للعمل: أحلام بالفارق بين

(*) قد يستلزم البحث ثلاث، أو خمس سنوات، وتستلزم الاطروحة التقليدية عشر سنوات أو أكثر: وبذلك نرى طول تراكم الأحلام المتكررة. والحلم يلطِّف الارتياب في الذات، ويصون اللذة، ويتيح الافلات من براثن الريبية، و(استرداد الصحة)، وهو يجلب نوعاً من سيطرة على الزمان (إن زمان الحلم زمن طيِّع، خاضع) ، وللحلم ديمومته الخاصة (الحلم يغذي الحلم).

ماصُنع وما كان يُحلم بصنعه، بما كان يجب صنعه، تعمق، إقدام، الأمر الذي يؤدي أحياناً إلى **أحلام ـ برامج**، ولكن هذه الاحلام هي أحياناً حلوة ـ مرة. ونحن نكتشف بالأحلام النقائص، وانصاف الكذب، والصمت والدروب المسدودة، وما كُتب، وبكلمة واحدة، تفاهة ماصُنع، عجزه، وهذه الاحلام تنقلب على الذات، ويدرك المرء أنه قاصر عن قول ماحلم بقوله، عن فعل ماحلم بفعله: وهذه الاحلام المؤسفة توضح سبب كثير من حالات النكوص اللامعترف به، كثير من التوقفات، من خور العزيمة التي لم يلمحها أحد ـ إن **احلام الاخفاق** («لو كان لدي الوقت، الجرأة» «لو كنتُ ذكياً...») هي امور مألوفة لدى المؤرخ، وان البحث ليقتضي بالضرورة قسطاً من خيبة الأمل، من **التملص** (فاللذة لايمكن أن تدوم)، والحلم يصبح هنا هدّاماً، يلغم ارادة المؤرخ. ولا يمكن إغفال أحلام المؤرخ المتصلة بموت العمل، وبمعرفة الشخصي، أحلام قاهرة، مضطهِدة، غير معترف بها (ماذا سيؤول اليه أمر ماكتبت؟) وهي تفسر أحياناً التعجل الفريد لمبادرة بعض الأعمال.

إن فاعلية الحلم تميل إلى التضاؤل مع (السن) و (التجربة)(*). هناك فقر في الحلم لدى بعض المؤرخين ـ فقر قد يكون ارادياً ـ فقر جدير بالتأمل. وانما تعود اسباب ذلك بلا ريب إلى الاغراق في التخصص، إلى ارادة منهجية مسرفة، إلى رفض افساح المجال للحصة الخاصة بالحساسية التاريخية، إلى نمو الصورية، إلى اختيار قطاعات (فقيرة) بالاحلام، وبحسب الزي الذائع (ولكن المرء قد يحلم بصنع منحنيات اكثر تقدماً وتعقداً؟). يحكم على الحلم بانه ينبوع أخطاء، وانه قليل (المواءمة). (هل يوجد اولاً حتى نرفض الاعتراف به)، الحلم شيء مراقَب، لامُلغى (يساء تقدير تخيل المؤرخ). وإن فرط الحلم في هذا

(*) كما لاحظ (باشلار) BACHELARD: (عندما يكون المرء في سن التخيل لا يعرف أن يقول لماذا وكيف يتخيل. وعندما يعرف أن يقول لماذا فإنه يكفّ عن التخيل. لذا ينبغي الانسلاخ عن الرشد).

التاريخ المنقّى، المعقّم، لامحل له. ولكن هذا التصور **التضاؤلي** للتاريخ ينجم عن السن، عن تعب المهنة لدى البعض، وإن قدرة الحلم، والحاجة إلى الحلم تضعف، ويفقد المرء ملكة التوثب ، ويهمل أحلام شبابه الطماح، ويقع في شرك **التجربة** ـ هذا المزيج من الحسابات غير المعترف بها، ومن الاخفاقات (او انصاف الاخفاقات)، ومن الرفاه الفكري (أو نصف ـ الكسل)، ومن اليقينيات المعلنة أو الاهمالات. إن وظيفة الحلم تحال على النوم (ويصبح الحفاظ على (المجال)، وعلى (السلطة) بمثابة التعقل الرئيسي)، وهذا يفسر بلا ريب احتقار الحلم بوجه عام (التلاميذ يقلدون الاساتذة): وينجم عن فقدان تربية الحلم أن يفقد المؤرخ في الغالب، لدى بلوغه الخمسين، كل قدرة على الابداع، كل مرونة تخيل، فيتبع الأطلال ذاتها دون كلل.

ومن المعلوم أن لاوجود لابداع تاريخي دون بعض تربية الحلم وحفظ صحته: والمؤرخ ـ ربما اكثر من سواه ـ أليف التخيل، يعرف توجيه حلمه، وإرادته، بل وتحسينه، يعرف مضاعفة الاحلام الارتيادية، وتغذيتها بمواد جديدة، بقراءات، بكلمات، بأغراض، بصور، بل وبارقام، يحاول **تقمص الأمر، الحياة مع**، يعيش في عالم خيالي، يعرف كيف ينزح، كيف ينعطف تجاه هذا الماضي الحسي الذي يخترعه، يراكم احلامه حول موضوع دقيق: في وسعه أن يتدرب على الحلم، ويمنحه الوقت الضروري، وفي مكنته أن يمتح منه لذة خاصة(الحلم السابق، المبدع، يجلب لذة متميزة، ذات شدة قد تفوق لذة الصيد)، ولكن هذه اللذة عرضة للتضاؤل اذا لم يُجد المؤرخ ضبط أحلامه فافسح لها مجال الحرية والطيش الضروريين (لاشيء أكثر خطراً من العادة)، يجب أيضاً أن يجيد المؤرخ الاحاطة، (استغلال) المعرفة الخاصة الصادرة عن الحلم ـ وهي معرفة متفاوتة من حيث الستر، والتعمية، والجس، وهي مبعثرة في صور، في احساسات ـ وهذا مايفترض نوعاً من القدرة على الانتباه الباطني.

5 ـ الحافز الخامس: الحذر

المؤرخ حذر بسائق تجربته بالماضي. إنه يعرف أن لاشيء بجامد، وأن كل شيء يتحرك، وأن اللايقيني يسود، وانه لايوجد (تقدم)، وأن الناس تحركهم اهواؤهم، وأحقادهم، ونشدانهم المجد: وهذا مايعطي نوعاً من رؤية حلوة ـ مرة عن الأشياء، نوعاً من ريبة كانت تقليداً في المهنة: الناس لايكادون يؤمنون بالأفكار العظمى، بفلسفة التاريخ. كان (سينيوبوس)(*) SEIGNOBOS يقول: **لا أهمية لشيء.** ولهذه الريبية المعتدلة ـ وقد أدانتها بآن واحد مدرسة **الحوليات** والمؤرخون الماركسيون والموراسيّون والديمقراطيّون المسيحيّون(**) ـ بعض الفوائد: انها تحذر من الغواية السياسية، ومن التفسيرات الشمولية ومن الايمان المؤسف بـ دروس» **التاريخ** ـ لقد كان (لوسيان فيفر) يصرّح بأن **التاريخ** لايعلّم شيئاً ـ إنه يتيح الافلات من أسر التجريدات السياسية (دور الجماهير أو الطلائع المحرّك)، من ضغوط الازياء الذائعة ـ الاقتصاد القياسي، أو البنيوية، أو علم السكان، أو التحليل النفسي أو علم الاجتماع ـ من عبادة الأرقام (ذات العقابيل الشاذة على المؤرخ في الغالب) ويعيد اليوم اكتشاف ضرورة الانتقائية(***) أو رؤية التاريخ رؤية تعددية... وبعد التفافات طويلة باهظة تنتهي إلى الحذر من «النماذج»، من الاستعارات المتوحة من «القوانين السوسيولوجية»، من المزاعم «العلمية» لبعض الباحثين، ونعود إلى علم الحياة، الى الفريد، الى الجائز، الى اللامحدَّد إلى تحليل اللعبة السياسية ... وهذه المراجعات تفترض نوعاً من الشجاعة ـ مادامت ضغوط المجتمع قوية: فليس من اليسير إنكار ما كان يُعدّ أساسياً خلال عشرين عاماً، ماكان يحملنا على الاطمئنان، ماكان يمكنّنا من

(*) وهو يرجع إلى رأي (جوريس) JAURES (لاشيء بمهم)، وكان يثير غضب (بيغي).

(**) انظر: المدراس التاريخية المصدر المذكور ص33 وما بعد.

(***) انظر (**تحيا الانتقائية**) لـ (جان بوفيه) J.BOUVIER سنة 1986 (المدراس التاريخية ـ المصدر المذكور ص 77).

طرد سوانا. وسنرى في المراجعات القادمة أضاليل وخداعات(*) فريدة، وسنحتاج الى قدر جيد من الريبة ـ ومن التهكم ـ حتى لانكون مستغفلين، وحتى نصون صوانا. ان المنظر التاريخي يتبدل بسرعة كبرى، والحذر يود الاستمساك ببعض قواعد سلوك بسيطة: اننا اليوم نقدر تقديراً أفضل الأخطار المتصلة بالافراط المذهبي، ونكتشف بدقة أعظم ثمرات الأسلاف، ونرى فجوات (مذهبهم) والفرضيات والاحكام المبيّتة التي تفسر هذا الاخفاق أو ذاك، ونقيس قياساً أفضل مدى الملل الناجم عن بعض الأعمال ـ أو مدى لافائدتها... وننتهي بفهم أخطار (تسييس) التاريخ، ونسعى إلى تميز أقل، أو إلى اللاتميز. اننا نبقى في التيار. والحق أن هناك من يأسف على هذه الانتقائية الجديدة، هذه الريبية النامية، ولكن هذا (الارتكاس) يحدث بالضرورة بعد بعض انزلاقات 1960 وزهو بعض المريدين. وفي سنة 1985 كان (بروديل) BRAUDEL يعلن متهكماً، وهو لايكاد يُخدع: «لاترتابوا. إن ثورات اخرى آتية. وان تاريخاً جديداً، وقراءة جدية جديدة، ترقبنا، وتهزأ منا سلفاً في الأفق»(**). ألا إن الأفضل هو أن نعي ـ قبل المباشرة بالبحث ـ ضرورة

(*) بل ان ثمة من يخشى حالات من (التقهقر): لقد شاهدنا من جهة أولى ماسُمي (تفتيت التاريخ). ومن جهة أخرى، رأينا رجوع الأشكال التقليدية للتاريخ: رجوع (السرد)، رجوع (السياسي)، رجوع (التراجم). وانا اكتفي هنا بقول: إذا وجب قيام انتقادات ذاتية ومراجعات في دنيا المؤرخين حتى تتفتح لأنواع طريفة من الخصب، فإن حالات (الرجوع) الشرعية ينبغي ألاّ تشبه رجعة مهاجري (الثورة الفرنسية) الذين لم ينسوا شيئاً ولم يتعلموا شيئاً. (إن التاريخ يحتاج إلى طفرات، وليس إلى ارتكاسات. فلكي تُنجز تلك الطفرات الضرورية، وتُقاوم الطفرات التي ستكون تقهقرية، ينبغي على المؤرخين التسلح بالجلاء، وباليقظة، وبالشجاعة). (جاك لوكوف J.LEGOFF : **التاريخ والذاكرة** ـ كانون الثاني 1988 ص 14 ـ 15 .

(**) في خطاب استقباله في المجمع الفرنسي عام 1985

هذه التساؤلات المرتابة، هذه التجديدات الدورية: وسيكون المرء أكثر حذراً في مشروعه، في نتائجه، وسيزداد حذره من الاختناقات الجمعية، من الأزياء المتعاقبة، من الضغوط (المهنية، وسيبحث عن ضمانات إضافية من سعة الاطلاع، وسوف لن يُقدم تفسيرات إلا **بصورة موقوتة**، وسيشير بوضوح إلى الاحتياطات المتخذة(*)، وإلى الموضوعات المستخدمة على صعيد المناهج، وسيتحاشى الملخصات الخطرة، والتعميمات اللاهثة، وسينظر شزراً إلى عمله، وبكلمة واحدة، سيطبّق قواعد الحذر التي عظم نسيانها باسراف، وسيحذر بوجه خاص الحكم المخيف الذي سيطلقه اللاحقون.

6 ـ الحافز السادس التواضع

إننا لانكاد نجرؤ إلا بمشقة على النطق بكلمة، لشدة سوء النظر اليها اليوم: ولكنها ضرورية، وتدخل في باب الحذر. ذلك أن على المؤرخ أن يكون واعياً حدود عمله، ونقص طرائقه، وفجوات معلوماته ـ عليه مبدئياً أن يطرح على نفسه بضعة أسئلة شاقة منذ تساؤله عمّا يفعل: ماالجديد الذي آتي به؟ مالذي لا أعرفه ولا أستطيع أن أعرفه(**)؟ ما الانحرافات التي اجترحتها عن غير عمد؟ ماالفائدة المتوخاة مما فعلت؟ مالنقد الذي يستطيع خَلَفي أن يوجّهه إلي؟ إنها أسئلة مهمة ـ ولكن فحص الضمير قد يقود إلى طرح كثير سواها. فبين مايمكن فعله وبين مايفعل أو يُكتب بون ضخم: لقد أُنسي تعمق أحد المصادر، أُهمل النظر من زاوية معينة(***)، أُغفل أحد الآفاق، أُستخدم استبيان محدّد باسراف،

(*) نرى سلفاً بعض الرسائل المنشورة مع كتل حواشيها على نقيض العادات السيئة. لسنوات 1970 ـ 1980 التي كان الناشر يوجب حذف كل مرجعية وكل حاشية.

(**) ذاكم سؤال أساسي ومثلاً عندما تُكتب ترجمة حياة تُستثمر مجموعة معلومات، ولكن بالضرورة يُجهل مالا يدع أثراً، ما هو الأهم في الغالب.

(***) ينبغي على المؤرخ في كثير من التواريخ (التقنية) أن يعي حدود معرفتة، ونقص تكونه وأن يلجأ إلى استشارة تقنيين أو ذوي خبرة: أطباء، أو مهندسين، أو خبراء محاسبة، تحاشياً للخطأ.

أُهملت استشارة اختصاصيين في علوم اخرى ـ أطباء، قضاة، اقتصاديين ـ وسُلكت دروب (مسدودة): المؤرخ يعلم حق العلم أيّان أخطأ، ويسعى في الغالب لاخفاء ذلك ببراعة تقلّ أو تكثر. وغير خافٍ أن هذا النوع من الأسئلة يضطر المرء إلى إقرار (نسبية) مايفعل، إلى الشعور ببعض وسواس، وأحياناً يكون الوضع غير مريح: **كيف سيحكم عليَّ من سيأتي بعدي**؟ ماذا سيرى مما لم أر؟ ماذا سيحتفظ به من عملي؟ اننا نلمس لمس اليد خطر البلى، ونعي هذا الانعكاس المحتوم، بل ومن البديهي طرح سؤالين متلازمين: **كيف سيرى عملي شاب في الثلاثين من العمر؟ وكيف سيراه الناس بعد ثلاثين عاماً**؟ إن لهذا القلق فائدته الثابته: المرء يميل على نحو أقصى إلى الغلو في تقدير قيمة عمله، وطرائقه، والإيمان بأنه بالضرورة (مؤرخ جيد) وأن عليه مراعاة بعض قواعد الحذر **الوقائي**، بل وأن يلطف مذهبه أحياناً، ويعيّر وجهة نظره أو ممارسته، بل انه يتدرب على التواضع. (اذا حسب انسان انه يعرف شيئاً، فإنه لايزال غير عارف بطريقة معرفته)(*). واذا ماتفحص المرء بأمانة مايفعل كان في الغالب ضعيف الثقة بنفسه، وشعر باللاطمأنينة، باللاثقة: ولكن المؤرخ الذي يبدو في الغالب رهيباً في أحكامه على الآخرين، ينسى طوعاً أن يحكم على نفسه بنفسه.

إننا نرى أيّان قادنا البحث: الى سبر الحياة الداخلية للمؤرخ. كان (آلان بيزانسون) A. BESANÇON يقول: «لابحث دون أن يكون بحثاً عن الذات، وهو الى درجة ماستبطان». «ولكن هذا التقمص يولّد القلق ويُحارب بعنف»(**). إن المؤرخ يحيا تناقضاته على نحو مقبول الى حد كبير أو صغير: إنه بآن واحد طموح وحذر، وحالم، مقدام وكسول، انه يحب اللذة ولكن عليه ابداء بعض التواضع، إنه عاشق يترتب عليه تخفيف اهوائه.. بيد انه ليس إنساناً عملياً، انه لايضطلع بمجازفات حقيقية، إنه يلعب **لعبة واثق**.

(*) بولس الرسول، (PAUL.ST) : الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس

(**) التاريخ وتجربة الأنا 1968 ص66

الفصل السادس

المخاطر

المؤرخ لايتجشم المخاطر إلا قليلاً، ولا يكاد يحب المغامرة (كان فاليري يقول ساخراً: «**ليست المقصلة، لحسن الحظ، بيد المؤرخين**»). ولكنه يجازف بصنع **تاريخ سيء**، أو بعبارة أدق، بصنع أعمال تعيش قليلاً وسرعان مايغلّفها النسيان. إن كتابة التاريخ ليست بالأمر البرئ. وهي في الغالب تذخر بالأفكار الميتة. ولذا غدا من المناسب عرض هذه الاخطار بايجاز.

1 ـ الاختيارات السيئة

ان الاختيار الأولي لقطاع البحث اختيار حاسم: فثمة كثير جداً من الاختيارات اللايقينية، الضعيفة التفكير، حيث يندفع الباحثون في لحظة واحدة، برفد الزي الذائع، وراء موضوعات معينة، ويزدرون التواريخ (التقنية) التي تبدو بالغة الصعوبة وتستلزم جهوداً مسرفة، فيختار (اختصاصاً) يتكشف لدى الاستعمال بانه ضيق باسراف. إن الاتجاهات السيئة موجودة. وقد كان (بيير نورا)(*) P. NORA يذكر متهكماً أن الاساتذة من امثال (لوكوف) LE GOFF و(دوبي) DUBY و (اكيلهون) AGUILHON و (رينه ريمون) R.REMOND و (ميشيل برو) MICHELLE PERROT

(*) محاولات تاريخ ذاتي 1987ص 352 ـ 353

و(بييرشونو) R. CHAUNU قد رفضوا الموضوعات التي فرضت عليهم، أو انهم بدلوها تبديلاً عميقاً، ولو كره (المشرفون على رسائلهم): ولكن ينبغي للافلات من (الموضوع السيء) توافر شجاعة وجدارة شخصية (الحق أنه يجب **«قتل الأب»** ذات يوم). والخطر انما يمثل في مباشرة أعمال بحسب فرضيات عتيقة ستبدو بعد مضي عشر أو خمس عشرة سنة بالية، أو أنه يمثل في إتباع فرضيات أو طرائق مستوردة من علوم أخرى - ومثلا من علم الاجتماع - فلا تلبث عاجلاً أو آجلاً أن تبدو مهجورة أو مرفوضة. إن ديمومة عمل من الأعمال، وقيمته، ونجاحه، وسلطته لاصلة لها بكمية المحفوظات المدروسة، وكتلة (العمل المبذول) والأفضل أن يُعرف ذلك **سلفاً**. كل شيء يتبع:

1 - الحدس الأولي، القدرة على اصطياد الموضوع المهم - أو الذي سيصبح مهماً بعد عشر سنوات.

2 - مدى التفكير فيما سيكون عليه الاختصاص بعد (س) سنه: يجب الاضطلاع بجهد شخصي للتخمين، والحلم بما سيكون ربما، بفهم آلية المنافسة بين المؤرخين.

3 - القدرة على **التجديد**، على ابراز اشياء جديدة (أو جديدة في الظاهر)، وهذا مايفترض توافر الحظ والتخيل والشجاعة.

ومن الجلي أن هذه القدرات نادرة: بعض الباحثين يفضّلون (الدروب الممهّدة)، الموضوعات المسماة (سهلة) التي تمنح بعض (الهدوء) ويتهيئون لخيبات أمل حادّة. والآخرون، على العكس، يحاولون معالجة موضوعات شخصية تتصل بالتزاماتهم السياسية أو الدينية(*). وهم، اذا لم يتخذوا حذرهم، ضحية تغيرات (حساسيات تاريخية) (لقد تعرضت أعمال التاريخ الديني منذ عشرين عاماً لارتكاس الفاتيكان الثاني، اذ الأزياء تلي الأزياء). وأخرون

(*) على هذا النحو تذكر (ميشيل برو) (**محاولات تاريخ - ذاتي**، المصدر المذكور ص 286) بأن أهواءها السياسية - المتصلة بحرب الجزائر، برفاق الدرب في الحزب الشيوعي، بنضاليتها اليسارية المسيحية - كانت أصل اختيارها اطروحتها: «إن قراري بدراسة التاريخ العمالي مستقل من هذه المعطيات التي تفسر مسيرته - إن إتخاذ ←

يخضعون لتأثير حصري هو تأثير (الاستاذ المشرف) فلا يحاولون التملص ويتبعون بالضرورة حظوظه في البقاء. الا إن الاختيار الجيد ليس بالأمر السهل: فاللاعدالة في جميع الاحوال أمر شائع. كان (أناتول فرانس) يلاحظ: «**أن للجيل اللاحق كل احتمالات الضلال بدل أن يكون معصوماً. فهو جيل جاهل وغير مكترث(...). وان آراء الجيل اللاحق (...) تتبع المصادفات أكثر ماتتبع (..) وان الاجيال الجديدة ستكرر إعادة النظر في إحكامها المرة تلو المرة**» لذا وجب الإمعان قبل الانخراط في هذا العلم أو ذاك (أو في الفرع ـ العلمي) واجتناب غواية التواريخ المعتبرة (سهلة)، والامتناع عن المضي (حيث يمضي الناس كافة): عندما يكون المرء في شبابه الأول ينبغي عليه أن يعرف كيف (**يبرز إفتراقه عن سواه**) وأن يصمد ـ عند الاقتضاء في وجه (المشرفين) الذين يبنون محاكماتهم أحياناً على فرضيات بالية أو ان يكونوا لامباليين. وإنما في حوالي الخامسة والعشرين أو الثلاثين تتحدد المهنة سلفاً بوجه التقريب وينهض المرء باجمل كشوفه. فهنالك يُفصل في كل شيء: يَحكي (رينه ريمون) بمكر أنه كاد أن يغدو مؤرخ الاضرابات: «ماقوام توجه حياة ودراسة؟ إن تاريخ إضراب كاد أن يجعلني متخصصاً بالتاريخ الاجتماعي، وكنتُ قد أصبح شهيراً بصفتي مؤرخاً اجتماعياً، وقد كنتً في (الحركة الاجتماعية) وكنتُ أشارك في (مركز تاريخ النقابية)، ولو ان وسائل الإعلام لجأت إليَّ بين الفينة والفينة لكان ذلك من أجل ان اعلق على الخصومات العمالية، أو ان افسر تجديدات التشريع الاجتماعي...).

2 ـ التاريخ الايديولوجي

لقد خلط الباحثون طوعاً بين سنتي 1930 ـ 1940 التاريخ بالايديولوجيا، ومزجوا العمل السياسي بالبحث التاريخي، وسعوا إلى إقامة مذاهب تاريخية

← الطبقة العمالية موضوع بحثي بدل انخراطي الجسدي أو التزامي السياسي مباشرة كان يبدو لي بمثابة سبيل للحاق بركبه، بل لخدمته من جراء اسهامي بمعرفتي وعرفاني. ولقد كان ذلك بالطبع وهماً إلى حد كبير».

متصلة بنظريات سياسية، بانشطة تبشيرية: وهذا التاريخ الممركس بالدرجة الاولى - (إننا ندع جانباً التاريخ المدرسي الذي ظل هامشياً على الدوام) - قد أحدث خسائر كبيرة وفتن كثيراً من المؤرخين الشباب، ولم يكن تأثير أمثال (ارنست لابروس) E. LABROUSSE أو (بير فيلا) P.VILAR أو (جان بوفيه) موفقاً جداً على الدوام. ولعل الباحثين اسهبوا في الحديث عن الدخل العقاري أو عن مساوئ الرأسمالية أو عن الحركات الاجتماعية وقد حال المذهب دون التجديد: ولا يمكن رصد ذلك إلا بعد بضعة سنين ... لقد أفسدت الايديولوجيا صورة المؤرخ: فهذا التصور للالتزام، للنضالية، وهو غالباً جد ضيق، كان يمنع الكلام على المصرف دون ذكر (ماركس) MARX واضفاء صبغة (السمة اليائسة) على التاريخ العمالي، وكان يقود الى فقدان الاستقلال الذاتي (كان المرء ينتمي إلى فئة، وينشد اعترافها به، ويتبع «الخط»). وقد كان الانتاج التاريخي (مشوَّهاً) إلى حد كبير أو صغير، وكان الباحث في الغالب يحرف الفرضيات، ويستعمل كلمات عائمة، خطرة - برجوازي، رأسمالي عامل، كادح - وقد أدىّ ذلك إلى أن كان جهل الحياة الحقيقية(*) كبيراً في بعض الأحيان (كان الباحث يعرف كل شيء عن الاضرابات والتمرد ولكنه كان يجهل التنظيم البلدي والشرطة والادارة). وقد ساعد هذا التاريخ المموَّه، المشوَّه - والمشوَّه(**) - في الغالب إلى إعادة النظر، وإعادة التصنيف: سيكون الباحث، عاجلاً أو آجلاً، مرغماً على إجراء دراسات **شمولية** (لقد رأينا ذلك

(*) كان المرء يجهل شروط السياسة: مثال ذلك هذه الاطروحة عن رئيس مجلس وزراء كانت تنمُّ عن جهل كبير بقواعد اللعبة السياسية. اما (سينيوبوس) فقد كان يفيد على الأقل من كونه ابن نائب.

(**) إن تاريخاً مثل تاريخ فرنسة في عهد حكومة (فيشي) قد حرف كذلك بدافع ايديولوجية تقود إلى جهل - باسم أية مبادئ؟ - الواقع اليومي وضغوط الإدارة في تلك الحقبة. ينبغي توافر قدر كبير من المرونة الذهبية حتى يُكتب تاريخ (فيشي) بضمير دون الوقوع في براثن المقالات الجاهزة.

بمناسبة العيد المئوي الثاني لـ 1789 حيث أوضح الباحثون تماماً فجوات التاريخ العزيز على (البرت سوبول A. SOBOUL) على طرح اسئلة محرجة: ماذا رأى هذا المؤرخ وماذا أهمل؟ ما الذي تغاضى طوعاً عن رؤيته؟ ماهي الفرضيات الايديولوجية الدينية، السياسية الجاثمة في قاع هذا الكتاب؟ ماالذي كان بوسعه أن يصنع، أن يكتب لو لم يكن ملتزماً بهذا الأمر أو ذاك؟ أجل، إن أبرع الباحثين كان يعتصم بتواريخ (حيادية) - علم الاحصاء، علم السكان، «العقليات» - للافلات من شرك الايديولوجيات، وانما المبادئ، والتلاميذ الحمقى، هما في الغالب سبب زيف اللعبة واجتراح مبالغات الحماسة.

إن المشكلة هي مشكلة السبيل للتملص من القوقعة الايديولوجية المذكورة: الأمر عسير جداً، وان اقوال (فيليب آريس)(*) PHILIPPE ARIES. تبين بوضوح أنه ظل الى النهاية شديد التعلق ببعض أشكال التاريخ الموراسي، وأنه كان لايزال يؤمن بأن التاريخ يمكن أن يعلّم شيئاً. وكيف يمكن التملص من مفردات تاريخ «ايديولوجي»، ومنعكساته **وأعرافه** بعد مرور عشرين عاماً أو ثلاثين؟ لقد شاهدنا عدداً من «الاهتداءات» بين سنتي 1975 - 1980 ولكن المحنة كانت حرجة باسراف بالنسبة إلى بعض الناس، ولا نبرح نجد لدى بعضهم الآخر إيماناً بصلة وثيقة بين العمل السياسي والتاريخ، بين ذاك العمل **وتعاليم** التاريخ، بينه وبين خصائص الكيان السياسي(**) (لقد أتاح العيد المئوي الثاني لـ 1789 تدريبات رائعة بهذا المعنى). ومن الجائز أن نحلم بفصل الالتزام السياسي عن العمل التاريخي (لقد كان ذلك جائزاً لدى امثال لوسيان فيفر(***))، كالفصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة: ولكن ذلك قد يكون

(*) في: مؤرخ يوم الأحد (1980)

(**) إن فكرة قدرة التاريخ على أن **يعلّم** شيئاً فكرة شديدة الرسوخ لدى الجامعيين سواء كانوا اتباع التقليد الماركسي أو الموراسي أو الديمقراطي المسيحي: إنهم بحاجة للإيمان **بفائدته** الإجتماعية.

(***) لم يحذو أتباع (لوسيان فيفر) حذوه في رفض الجانب السياسي على الرغم مما يبدو.

وهماً فالمؤرخ يؤمن على الدوام ـ غريزياً أو بسذاجة ـ بأن له (دوراً) ينهض به. ولكن من الواجب وعي هذا الخلط:

ـ إن كثيراً من الأعمال واهنة من جراء ذلك تماماً، وهي محل حيطة، ومراجعة: فلسنا واثقين بأن المؤرخ قد قرأ الوثائق قراءة جيدة وأمينة: كان دوق (بروكلي) DE BROGLIE يقول : (إن جميع النصوص التي يذكرها السيد (تين) TAINE تحملني على التفكير في تلك التي لايذكرها). فالمؤرخ بغريزته، يميل إلى تمييز وثيقة ما، قراءة ما: وهذا مايمكن أن يحرف أعماله بشدة.

ـ لقد أُهملت حقول تامة من مجالات البحث بسبب حوافز ايديولوجية. لنذكر مثلاً دالاً: يتحدث (ليون بولياكوف) L. POLIAKOV في مذكراته(*) عن خيبة أمله عندما وجد نفسه بعد مناقشة رسالته للدكتوراة وقد افهمه (بروديل) بأنه لن ينل أي تقدم (مالم يُعنى باللاسامية). وإن معرفتنا بالمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين محدّدة جداً: كانت (آني كريكل)(**) ANNIE KRIEGEL توضح قائلة: (ليس لدينا أي اختصاص كبير بتاريخ المانية النازية). وسيكون من اليسير أن نلاحظ فجوات البحث في قطاع تلو الآخر: مثال ذلك: عبثاً أُعيد الاعتبار للتاريخ السياسي(***). ولكن الباحثين نسوا كل شيء يتصل بالادارة، والبيروقراطية، وان مصيرها مع ذلك كان مرتبطاً ارتباطاً شديداً بالسياسة(****)، وانصب الاهتمام على الاضرابات،

(**) **نُزُل الموسيقيين** .1981

(**) تصنيف (آني كريكل) بأن مسؤولية ذلك تعود على (مدرسة الحوليات)"التي نجم عن رفضها الاهتمام) بالمعاصر، بالسياسي، وبالحادث، تحويل أنظار المؤرخين الفرنسيين منذ 1946 عن أمور جادة من طراز معسكرات الحشد» (مسؤولية المؤرخين ـ **الفيغارو** وعدد 18 ايار 1990 ص2) وكذلك أمكنت ملاحظة غياب للمؤرخين شبه تام أثناء حرب الخليج (1990 ـ 1991): لقد نسوا إعداد مؤرخين (للشرق الأدنى) المعاصر.

(***) ـ **من أجل تاريخ سياسي** ـ (لوسوي 1998).

(****) لقد فضح (بيير روزانفالون) P.ROSANVALLON هذا الوضع (الدولة في فرنسة ـ لوسوي 1990).

ولكنهم أهملوا (رقابة العمل)... لقد أبعدت الايديولوجيا في الغالب المؤرخين الشباب عن **قطاعات** بحث بأسرها لأن **النضالية** لم تجد فيها بغيتها(*). «إن جيل المؤرخين الشباب ينزع إلى تقديم وجهات النظر الوحيدة (لمدرسة الحوليات). ولكن تدارك التخلف يستلزم وقتاً. وهو يستلزم وقتاً وتسديداً من أجل العمل على تفصيل دراسات معمقّة باكثر من تسوية العلاقات الفرنسية ـ الفرنسية على عجل» (أني كريكل)(**). والحق أن الشباب ـ ويكفي الاصغاء الى خريجي معاهد المعلمين اليوم ـ لايكادون يتعرضون للسقوط في شرك هذه الايديولوجيات: وعندهم أن (مؤسسي الخطاب) **بروديل**، **فوكول** FOUCAULT قد ألقي بهم سلفاً في (سلة مهملات التاريخ)، كما كان يقال في الماضي، وكم يخالفون بوضوح، في هذه النقطة، جيل الخمس وثلاثين أو الاربعين، وعندما يعالجون موضوعات سياسية محضة فإنهم يزدرون النضالية، ويعربون عن أعظم الحذر: **ان تسخير الذات لخدمة الآخرين** مفهوم بالٍ عن التاريخ.

3 ـ التاريخ البلاغي

الصنف البلاغي من أعظم صنوف الشرك خطراً التي يتعرض لها المؤرخ:

أجل، إن **المحاولة في موضوع**، **الخطاب المتصل** بالانشاء شبه الفلسفي، أمور فاتنة حقاً، ولكن لامناص من تفريق الأنواع. فالتاريخ البلاغي ليس تاريخاً، وإن إرادة الإقناع ليست سوى شكل من أشكال **التغرير** بالعقول. المرء ينضد حججه، يدفع بخطابات متعمقة، ينسى قراءة النصوص، يمرّ مرور الكرام بالأمر المهم، يتحدث من علٍ، مستسلماً لمتعة الأبنية الخيالية، والنماذج النظرية، يعيد باعتساف خلق ماضٍ مطواع ـ ولكن هذه الطرائق المنحرفة، وهذه التفاسير

(*) إن اعادة اعتبار (لوبلاي) LE PLAY إلى اليسار أمر حديث تماماً ولكن الحق أنهم لم يقرأوا (لوبلاي) بل كانوا يعيشون على أفكار سياسية مسبقة: موقف تقليدي.
(**) الفيغارو 18 ايار 1990 المقالة المذكورة.

المبسَّطة، وهذه اليقينيات الآمرة ليست سوى ألعاب فكرية غير ذات أساس، لاتلبث أن **تتهافت**. إن البلاغة ليست بناءاً. انها ليست سوى اداة خداع: المرء يلعب بالوقائع، بالكلمات، بالنماذج، بالملابسات، ويقع في براثن ذاك التاريخ المجرد الذي (يفسر كل شيء)، ولكن، كما تقول (جانٌ سيوك بويديسو)(*) JEANNE SIWEK POUYDESSEAU - » في هذه النظرات المحددة **سلفاً** الى حد كبير أو صغير (...) يُستخدم الحادث التاريخي كتأكيد بسيط دون إمكان إقامته بكل يقين في سياقه. وتبقى الطريقة الانتقادية، بكل مالها من ضرورة قاهرة، أفضل ضامن في وجه نمذجات تدّعي أنها علمية، حيث يكفّ الواقع عن أن يكون اساس التفكير، بل يقتصر على أن يكون توضيحاً له. إن الخطر بديهي أمام تعقد الواقع، خطر امتناع الوصول إلى تفسير بسيط ونهائي.

هذه المحاولات الآسرة لاتعيش في الغالب إلا قليلاً: فالمرء لشدة حرصه على تفسير كل شيء يفقد كل معنى الأمور المعقّدة، اللامحدَّدة، ويحيا على أفكار جاهزة، الشيء الأكثر خطراً في التاريخ - إنه **يحرف** الماضي بنية سيئة تامة الطيش، ويقدم يقينيات حيثما تكون المادة موضع ريب، ويقيم علاقات سببية على أساس أوهى الظواهر: المهم هو إقناع من يتفضل بالاستسلام للإقناع. بيد أن التعليلات العميقة هي في أغلب الأحيان تعليلات سياسية، يسارية أو يمينية. (إن الدراسات التي تناولت سنوات 1789 - 1794 بين سنتي 1988 - 1989 ، والتي أفلتت من إرادة التقريظ الملمع إليها، دراسات قليلة، حتى ولو كانت بارعة التمويه: لقد كان من العسير، فيما يبدو، كتابة التاريخ **بألفاظ حقيقية**، دونما إدانه أو تشذيب)، وهذا الحرص البلاغي أشد ظهوراً في الأعمال المسماة تركيبية **الكتب التعليمية** .كان مارك بلوخ(*) يقول: «إنها ينبوع تصلب»:

(*) نقابية الموظفين حتى الحرب الباردة - 1989 التصدير ص 8

(*) **«التعليم والكتب التعليمية أدوات تصلب متميزة» (امتداح** .. ص 124).

إن الكتاب التعليمي يقهر الفكر، ويشوّه الواقع. وكان (لوسيان فيفر) يصرّح سنة 1955: (ليس لي من الأمر شيء، الكتاب التعليمي يُملني. إنه يعرف كل شيء. يقول كل شيء. ينفد كل شيء لانافذة مفتوحة على الجليسين المزدهر. لاكَرْم بري متعلقاً على الجدران وقادراً على جعلك تحلم. واحد، اثنان، ثلاثة. واحد، اثنان، ثلاثة: شيء ما جاف، محدَّد، ناصع)(*). ومن الواضح أن التاريخ البلاغي يؤدي إلى نوع من الشيوع العامي الذي ينبغي عدم الخروج منه، عدم الافلات من «طروحات» (البرت سوبول) أو (فرانسوا فوره F. FORET: وهذا أمر بالغ الخطورة. على المؤرخ، من حيث مزاجه، أن يكون **متمرداً** يحذر الإيمان بما هو جاهز، بما هو مُعَّد للتفكير تاريخياً، لما يبعث، كما يقول (بيغي PEGUY، صنوف (الطمأنينة، واليقين، والسكينة)(**): الأمر القريب من السخرية.

4 ـ التثبيط

إننا لانريد الكلام على التثبيط الناجم عن صعوبة المهمة ـ والغالب أن يكون المرء قد أساء حساب جهده، وأساء تقدير الواجبات اللازبة،أساء فهم المناهج ـ بل عن التثبيط المتصل بالسن والذي يطالعنا في كل مهنة. المؤرخ انسان يشيخ، وهو يشيخ على نحو سيء في الغالب. وإنه ليسيء قبول خطر الشيخوخة، يرفض فكرة شيخوخة الفرضيات، ويعمل جهد المستطاع على التحسين والرتق. ثلاثون، اربعون سنة عمل: هذا وقت طويل بالنسبة الى مهنة شاقة، جاحدة. والشيخوخة تصيب:

1 ـ طريقة صنع التاريخ وجودة الانتاج

2 ـ فرضيات البحث (ثمة تهافت سريع يصيب الفرضيات الايديولوجية).

3 ـ الإرادة ذاتها (الطماح يتضاءل، ينكفئ المرء على أعمال تافهة، يحيا

(*) حوليات ESC 1955 ص 580.

(**) «حاشية مواكبة عن السيد ديكارت والفلسفة الديكارتية».

على رأسماله). أجل، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار **الاهتراء** الناشىء عن المهنة، وخفوت الفضول على مرّ الأيام، والمسؤوليات، والعزلة(*)، وكره المهنة، والزملاء، والتلاميذ، والمرء يرى في كل مكان تهديدات، أعداءاً (س لايقتبس مني، إذن هو حاقد علي)، يشعر باللاارتياح الى الشباب، ينقطع ميله الى إثارة الخصومات، يستسلم.

ومن البيّن أن تعب المهنة الملمع إليه مصحوب في الغالب بنوع من أزمة شك لايكاد الباحثون يتحدثون عنها إلا لماماً(**)، ولكنها توضح إيضاحاً أفضل **كيان** المؤرخ. إن المرء ليشعر، كما في المهن كافة، وعندما يبلغ سناً معينة، وبعد (س) من العمل المهني، يشعر ببعض قرف من الاشياء، بنوع سأم. اذ ذاك تنقض على المؤرخ اسئلة وضروب قلق واخزة وموسوسة حول ذاته: ماذا فعل ولماذا؟ أي دور نهض به؟ مافائدة كل هذه الجهود عن أشياء ميتة، خارج الحياة؟ ألم يخدعه وهم حقير من الأوهام؟ وهذه الشكوك، والخيالات، والوساوس تفسر خلال برهة سعادته الهادئة بوصفه مؤرخاً: إنها نوع من أزمة ثقة، هي بلا ريب عابرة، **شك في ذاته** يزعزع أركان (يقين) عشرين أو ثلاثين سنة: إنه يكفّ عن تقدير ماكتب، أو مافعل، ويشعر بانطباع انه (انتهى)، ويفقد شجاعته، ويستشف شعور الإخفاق، ويستسلم لمتع تخيل الشك. إنها فترة صعبة تتفاوت بلا ريب تبع الأمزجة (الارتياب في الذات قد لايزيد عند البعض على المسّ مسّاً رفيقاً)، ولكنه في الغالب يعطف طريقة المؤرخ، أسلوبه، عمله. والمرء لايكاد يعترف في الغالب بهذه التوترات، والشكوك، بل يموّهها في إهاب صعاب

(*) ان المؤرخ يظل وحيداً، ويظل عمله وحيداً، ولو كان يصطاد مع الجماعة. وسيحلق «التلاميذ الجدد» عاجلاً أو آجلاً، ويتنكرون «للمعلم».

(**) إننا نعتقد أن من الأفضل الكلام عليها لأن هذا النوع من الأزمة يُشكِّل جزءاً من «المهنة» : إن فكرة أن المرء لايتغير من حيث تصوراته للتاريخ، ومناهجه، وتصرفه، فكرة سدى في التاريخ المعاصر. ومن الجائز الاضطلاع بالتحليلات ذاتها في دنيا الطبيب أو المحامي أو الإداري.

أسرية أو مهنية. وفي حال الضيق والمرارة والسأم هذه، يطالعنا خليط معقد غير مستقر من (التعب) والوساوس والريب والقلق بازاء مستقبله (كان هبرار HEBRARD مدير الأزمنة TEMPS يقول: ليس لديه سوى العمر (الذي يفصلة عن الموت)، ومن تضاؤل اللذة، واللارضى عن الخطاب التاريخي، والخوف المكتوم من الشباب، وازعاجات المهنة... أجل، إنها إحساسات عابرة، وإدراكات مبعثرة، غامضة، لحالات نفسية غير ثابته، والمرء لايكاد يحب الإعتراف بضعفها (وهو يخشى خشية وسواس أن يزيدها الاعتراف قوة). ومن النادر التساؤل بصورة جلية وتأملية عما سيفعل ـ بوصفه مؤرخاً ـ في السنوات العشر أو العشرين القادمة، إذ ليس لديه **مشروع محدّد**، بل كثير من **المشروعات ــ الذرائع**، كثير من الأفكار التي يعرف حق المعرفة أن ليس في مكنته إنجازها (إنه لايكاد يتوهم عدد **السنين الطيبة** التي ستبقى له)، وهو لايجهل أن لم يبق لديه، ولن يبق، إلا وسائل محدّدة في الزمان (السنوات تمر سريعاً جداً في هذه السن)، وهو يعمل (كالآخرين)، أي انه **يبذّر** كثيراً من الوقت، ومن العلم، في أمور صغيرة، وانه يستسلم (للاستغلال)، ويرضخ لمصادفات (الطلب) ... وغير خافٍ أن هذا التبعثر وهذا اليسر، قد يكونان خطرين، ويزيدان الإحساس بالفراغ أو بالملل. ولا ريب في انه يدرك، في بعض اللحظات فعله، ويتخيل أعمالاً لمدى طويل ـ أعمالاً تقاوم بلى الزمان ـ تبدو له ضرورية، ولكنه لم يبق محتفظاً بتذوقها، بارادة صنعها، وإن طاقته **التنبؤية** تتضاءل، ويخشى الإخفاق، وفقدان الوقت (لم يبق أمامي وقت كافٍ)، فيحذر حدوسه (اسراف في محاكماته) ولا سيما يفقد شجاعته (ان هذه الأعمال الكبيرة تستلزم تضحيات كثيرة بالحياة الشخصية، والمرء يغدو أنانياً، يحسب ثمن جهده، ويراعي وضعه...): بل هناك نوع من **الحذر**، من الأزمة العابرة غالباً، ولكنها تثير أحياناً، بصورة مفارقة ـ وعلى نحو مباشر ـ سلوكاً غير معقول ابداً (لم يبق المرء شديد الانتقاد لما يكتب).

ومن شأن وعي هذه الحالة من الضعف والتعب أن يزيد شعور اللايقين: فكلما توغل المؤرخ في ذاته الباطنية وعظم بلوغه المناطق الغامضة زاد بُعده عن

الطمأنينة اليومية وعن عادات الفكر الأليفة: ليس من السهل بتر مايعرف المرء عن نفسه، أو بالحري مايحسب انه يعرف عن ذاته بوصفه مؤرخاً، عن حدوده وقدراته. ان المؤرخ الذي يتحلى بشجاعة فهم، والذي هو ارادة بالدرجة الاولى، يكتشف فجأة أن هذه العزيمة قد لاتكون سوى خداع، أو أمارة ضعف، بل الأسوأ انها علامة تفاهة: لقد بذل في عمله كثيراً ـ ولكنه كذلك ضحّى كثيراً، ووضع حداً لأمانيه، ولم يفكر تفكيراً كافياً بما كان يفعل ـ إن خيراً أو شراً ـ بوصفه مؤرخاً. لقد كتب كثيراً، ولم يأل جهداً ـ ولكن ماذا سيبقى **بعد س سنة** من هذه الأعمال؟ كم ضحَّى بجلّ حياته، عشرين، خمس وعشرين سنه ثمينة؟ يطرح على نفسه أسئلة واخزة، (ممتنع حلها) بطبعها: هل كان ذلك هو **التاريخ الجيد، المتين**، (الموثوق)؟ أترى تلك الأعمال فاقدة القيمة سلفاً؟ ألم أك فريسة أوهام؟ ماذا نسيتُ أن أصنع من أمر «مهم»؟ إن هذه الأسئلة تغدو ملّحة أحياناً، **ثقيلة**، قاهرة. لايبقى شيء (يقينياً). المرء يلمح صدوع المذهب الذي عاش بإعتناقه، يرتاب في يقينيات غيره الواهية، يعي نقاط ضعفه الخاص، يشعر مقدماً بإخفاقه الأخير، يكتشف الملل فيما فعل، ملل منتشر، رهيب، وقد أصبح **معتاداً**. إنه يدرك سدى بعض العادات الفكرية، بعض الشعائر أو بعض الطرز الخاصة بمهنة المؤرخ، إنه يصبح بصيراً: مانفع هذه الكتلة الضخمة من الجهود الذكية، من هدر المواهب، من الدهاء، من الارادة؟ سعداء هم الذين يتحلون بإيمان السذَّج ... الريب يطغى على كل شيء: إنه قصر من ورق ينهار، والمرء يعي الفراغ غاية الوعي، يعي غياب التفكير، واللاتجربة بالحياة، والتبجح، والخفة الخفية وراء هذا العمل أو ذاك، وسمة التفاهة والضيق والابتذال التي تسم ذاك العمل ... وغير خافٍ عن المؤرخ الذي تعتوره هذه الشكوك أن هامش الحركة ضئيل: إنه يعلم أنه لن يستطيع مبادرة شيء ضخم، وأنه سجين انتاجه، وسنه، ورحيله، وأنه مردود سلفاً، مرفوض سلفاً. إنه لايقدر على **الاستئناف**، فالإخفاق ماثل **فعلاً**: والمرء يتعرض بشدة للتشنج على مافعل، للمضي على **السنن ذاته**، للتجمد، وثمة شيء مؤلم في هذا الدفاع عن المبادئ التي آمن بها (والتي قد يكون كفّ عن الإيمان بها)، إنه يبرهن على أنه لم يبق

ذا ارادة الوثوب من جديد أو شجاعة ذلك، وانه اهمل (صدر الدكان).. إنه يمسي حبيس ماضيه - ذاك المزيج من العادات الرتيبة، واللذات، والنجاحات، والمصالحات، والخيبات، وأنصاف - الاخفاقات - وهو يعرف عثراته كلها، وجميع تراجعاته العلنية وغير العلنية: وهو مرغم على قبول هذا الماضي، الأمر الذي لايخلو من مرارة، لأن وعود الشباب لما تُصن دوماً، أليس كذلك، ولما يستطع أن يحقق كل مايريد.

ان هذا الأمر لايطاق لدى بعضهم، وإن أحدهم ليعمد إلى إعادة تأليف هذا الماضي وتنظيمه، والرقي بمجرد طرائق العمل إلى رتبة المبادئ، وإدانه كل مايخالفها، واصطناع **مذهب** دونما أساس، وإقرار تحريم، ويغدو المرء لامتسامحاً، لاعادلاً: الخيالي يطغى على كل شيء، ويذود المرء باستماتة عن نظريات ومذاهب بالية، وينقلب من بعد تواضع إلى متكبر، إلى متعثر بارع.

وثمة آخرون يقلبون، على نحو أرهف، ريبيتهم إلى مذهب، ويفيدون من ذلك لينقدوا نقداً صادقاً أعمال الآخرين، أو يبرهنوا على عثراتهم، ويؤكدوا من علٍ أنها أعمال (بالية): وعندئذٍ يصبح النقد المذهبي **مهنة** تجلب لدى ممارستها بذكاء متعة رهيفة وتهب بعض الثقة...

وهناك آخرون يحرفون طرائق عملهم واسلوبهم من حيث أنهم مؤرخون:

انهم تركوا تماماً الاستمرار في الأهتمام بالاشياء ذاتها، وافسحوا مجالاً أوسع لتجربتهم بالحياة، لوزن شخصياتهم، لتأثير أهوائهم، وهم يهملون قسطاً من وثوقيتهم السابقة. وتلكم تغيرات معقدة، مكتومة، شبه سرية: إنهم يقلعون عن الاستدلال بالطريقة ذاتها قبل وبعد. إنهم يتغيرون. ولكنهم لا يعترفون بذلك.

كل مؤرخ يرتكس على هذه (الازمة) بحسب مزاجه: بعضهم يصبح مذهبياً ويستمر في حفر دربه على **شاكلته**. وآخرون يودون تعويض وساوسهم بالتصدي سريعاً لأعمال كبيرة لن ينجزوها وهي لاتتميز بالجودة دوماً.

وآخرون يفضّلون بسائق الريبية أو التثبيط أو الملل الانصراف إلى أعمال صغيرة سهلة، مقالات لندوات، محاضرات، إشراف على دراسات: وبذلك يتضاءل (إنتاجهم)(*). وغيرهم يحاول تغيير بحوثه ويستفيد من هذه الأزمة لارتياد حقول جديدة، وبدء دراسات تسمى (رائدة) بتكلفة جديدة: وهؤلاء يتحلون بارادة النزو، باسترجاع حظوظهم، وقد كانت الازمة خصبة لديهم.

(*) بعضهم يعزفون عن الأمر ـ دون افصاح عن ذلك، ويتجهون إلى السياسة أو إلى النقابية أو إلى الإدارة، فيصبحون رؤساء: إنها ذرائع ممتازة تتيح البدء **بمهنة جديدة**، وتجلب لذات طريفة كل الطرافة.

الفصل السابع

الاستعمال الجيد

1 ـ خيبات المهنة

الحصائل رهيبة في الغالب: فالمرء يرى بجلاء لدى بلوغه سناً معينة مالم يفعل، مالم يستطع أن يفعل، الكتب التي كان في وسعه أن يكتبها، وفي هذا غالباً أفكار أليمة.

هذه الخيبات ترجع إلى المهنة أول مانرجع: فالمرء لم يحظ بالمناصب التي كان يستحقها، وبالتكريم الذي كان يحلم به، وهو يتحمّل بعناء جحود التلاميذ، ونصب التعليم، ويلقى مباشرة ضروب المنافسة، ويصّنف كتباً تظل مجهولة(*). توقف الترفيع والعلاوات (بالقطّارة) يثيران الحنق وكما يقول (د.روش)(**) D.ROCHE: «**التشبيط ينتصر، الاعمال تراوح، النظريات لاتنتهي، التدريس والادارة يزيدان ثقلاً، وذلك كله يبتلع الطاقة، ويستولي الاسترخاء الكئيب على الشباب والأقل شباباً...**». ان الحسد أمر شائع في عالم المؤرخين، وهو في بعض الأحيان أقوى من روح الجماعة، ويكون في

(*) المصادفة قد تعمل ضدك أحياناً: وذلك بظهور عدد من الكتب عن الموضوع ذاته وفي الوقت ذاته.

(**) المؤرخون اليوم، **القرن العشرون** ـ تشرين الأول 1986 ص 3 ـ 20.

الغالب جد قوي داخل الجامعة، أو ضمن العلم الواحد: فهذه الخصومات الحرفية وهذه «المنظومات الازدرائية» ذات أهمية كبرى في الغالب: فالانتخاب لكرسي مهم، قبل 1968 كما بعد عام 1968 ـ كان موضوع مؤامرات بارعة، ولكن الاستقلال الذاتي الجامعي قد ضاعف هذا الميل؛ والحسد في الغالب يرتبط بشطط حبّ ـ الذات (وهذا مايفسر دون ريب أنَّ محاضر الجلسات الخبيثة اصبحت نادرة، لأن الواجب يقتضي مداراة الحساسيات الموسوسة بعناية) كما يرتبط بالروح المذهبية وبالسياسة (فالخصوصيات في الغالب لها أسباب هي سياسية أكثر منها علمية، وفي فرنسة 1991 ماتزال أمور تسوى، ترجع جذورها إلى حرب الجزائر)(*)، إضافة إلى ما سبق فهو يرتبط بتأثير التكتل والفئات والعصابات (ان العمل المشترك يكفل بعض الطمأنينة **ودارات الاعجاب الذاتي المتبادل** تعمل على مايرام). ومن العسير جداً معرفة خفايا مؤامرة أُجيد حبكها، خفايا انتخاب (مهم). ولقد ظل اسلوب الاصطفاء ذا أشكال مائعة، الأمر الذي يفسر دون ريب حالات الحقد الراسخة، والخصومات المذهبية، والسدود الناجعة في الغالب، والاحتلال شبه العسكري لنقاط استراتيجية معينة: سيكون من المفيد جداً من الناحية المعرفية دراسة **علم اجتماع الخصومات** بين المؤرخين، وبذلك تُكتشف منظومات **تفاهم** معقدة وتضافرات غريبة. ولكن ذلك يشكّل قواعد لعبة يكتشفها المرء بعد لأي، وغالباً على حسابه.

ثم إن الخيبات ترجع أيضاً إلى أسبابٍ أخرى: المرء يكفُّ عن التجديد، ويقوم باعمال تكرارية ـ على شاكلته(**): صحيح ان المرء يكسب مع التقدم

(*) إن صدوع سنوات 1990 لاتزال ترجع إلى أعوام 1955 ـ 1962 على الرغم من صنوف الانقلابات وإعادة التصنيف. ولا ريب في أن ثلاثين سنة هو الزمن الضروري «لتصفية الحسابات».

(**) بين يدي المرء كتب يعدها دون أن تتوافر لديه شجاعة إنجازها، ومشروعات متباطئة تتجمد (سيكون من النافع جداً دراسة تاريخ الرسائل الجامعية والأعمال المهملة).

بالسن قدراً أوفى من (الحس) التاريخي، وقدراً أكبر من التجربة، ولكن شجاعة إقدامه تتضاءل وتتبعثر جهوده في الاستجابة للطلبات، وأحياناً يتفوّق لديه التدريس على البحث، كما يقول بخبث (جورج فريدمان)، G. FRIEDMANN يندمجّ شيئاً فشيئاً (في عالم العميان والغائمين). اللذّة تمحي والمرء يرضخ لأخطار تخصص مسرف، ويقلع عن تتبع (مايجري)، ويرقب المشهد بلا اكتراث. وهو بصورة خاصة يحجم عن الإيمان بما فعل، ويرى جيداً (حتى ولو لم يعترف بذلك لنفسه إلا قليلاً) أن عمله عرضة أن يغدو سريعاً أمراً **عتيقاً**، وان الشباب قد شرعوا يجهلونه وان (زيه سيصير قديماً) وأنه لم تبق لديه شجاعة المقاومة.

2 ـ قواعد وقائية

اذا شئنا تحاشي بعض الخيبات وجب من باب الحذر أن نراعي بعض قواعد **وقائية** تتصل بحسن استعمال التاريخ. ولعل من باب المجازفة الكتابة في هذا المجال، لكن يبدو لنا من الضروري التفكير في **الاستعمال الشخصي** الذي يمكن الاضطلاع به في التاريخ (سواء أكان المؤرخ محترفاً أم «غير محترف») وكذلك التفكير في مايمكن توقعه منه **بصورة معقولة**. وانه لفصل شاق، لأنه يمسّ حياة المؤرخ الحميمية.

القاعدة الاولى:

ينبغي افساح مجال واسع للذة(*)، وتحاشي اضمحلالها، وتدبر أمرها (إنها هوى تمكن السيطرة عليه). ينبغي تنويع اللذة، ومجانبة مايبعث الملل أو السأم، ينبغي أن يجدد المرء أشكال لذته بتغيير المجال والاسلوب، والعثور على ينابيع جديدة للذة. وعندنا أنه ليس يالأمر الجيد الاسراف في بحث التاريخ، الاسراف في الكتابة، الاسراف في الكتابة دون تفكير ـ إننّا اليوم لانفي لذّة التفكير ولا

(*) انظر فيما تقدم (فقرة الحافز الثالث: اللذة).

لذّة الكتابة حقها ـ الاسراف في البعد عن الناس، وفي العمل في العالَم، وفي الاعتصام بتاريخ مجرد، عقلاني، املس، حيث تُعالج **منحنيات ونزعات: إذ** على المؤرخ إذا شاء زيادة لذته أن يهتمّ بالحياة الحقيقية، ألاّ ينسى انه كائن حي حقاً، بأهوائه، وأفراحه الصغيرة، وأتراحه الصغيرة. ينبغي على لذة المؤرخ ان تعيده إلى الحياة بدل عزله في قوقعته. ومن شأن كل إنسان أن يلعب لعبته كما يشاء، وأن يمتح لذته كما يريد: ولكن عليه أن يجيد ضبط لذته وتدبر شأنها (عليه أن يحذر اللذات التافهه، أو الخيالية أو الساحرة)(*).

القاعدة الثانية:

ينبغي البرهان على التحلي بالحذر: ينبغي اجتناب الأوضاع المسترذله، الانخراط في قصص ايديولوجية، قصص **الزي الزائع** أو قصص النضال التي يصعب الإفلات من ورطتها فيما بعد صعوبة عظمى. ينبغي عدم الإقبال على أعمال مشفوعة بجميع فرص الاضطرار لتركها. ينبغي ان يكون المرء يقظاً، ان يحسب بذكاء ثمن التقادم (الغلو المذهبي، التهور باعتناق فرضيات تقود في الغالب إلى شيخوخة العمل بسرعة). ان من الضروري أن يدير المرء بحذر **رأسماله**، صورته: ينبغي أن تكون لديه مجالات عديدة (حتى ولو كان ذلك باهظاً من حيث الوقت)، ينبغي: عدم الاقتصار على تخصص ضيق باسراف، عدم الاستجابة بحسب الطلب دون فائدة حقيقية، اجتناب موجات تركيب تعطي صورة تافهة(**) (حتى لو كان من الصعب مقاومة ضغوط الاصدقاء، والأزياء الذائعة، ومن الخطر نسيان قواعد سعة المعرفة ـ من جراء أفضل الذرائع). كان (دانييل روش) محقاً في فضح (اختيار الموضوعات تبع الطلب بدل المشكلة العلمية، تبع سرعة العمل دون الرجوع إلى المصادر الأولى، تبع العرض المخروم النتائج، وهذا يطرح حتماً مشكلة الطباعة العلمية الباهظة

(*) الندوات، الملتقيات، الأحاديث وسائر حلقات البحث تقدم في الغالب مثل هذه اللذات.

(**) من الخطر نشر كتابات لم تُستكمل أو غير متأنية، أو «تكرارية» بذريعة الزي الذائع أو طلبات الناشرين.

واللامربحة(...) الإرغام الموقوت لتقديم إجابات مبعثرة، ومداخلات حميمية بحسب ظروف حفلات المناسبات التذكارية ومبادهاتها)(*): إننا لانستطيع قولاً أفضل.

القاعدة الثالثة:

واجبُ الحفاظ على الاستقلال الذاتي واجتناب الإسراف في عبارة (مثل الآخرين)، الإسراف في الاتباعية (إن ذلك لايكاد يغتفر(**). ينبغي على المؤرخ أن يبرز **خاصيته**، أن يميز الاساسي عن الثانوي، أن يحدّد لنفسه أهدافاً دقيقة، أن يحسب **حساباً معقولاً** ماذا سيفعل خلال (س) سنة قادمة، ماذا يريد أن يفعل قبل أن يغيب عن الميدان. ينبغي عليه أن يكون قادراً على برمجة عمله في مدى متوسط، والدأب عليه، والمثابرة ـ حتى لو عرضت (طوارئ). إنه اختيار لامناص من الاضطّلاع به: على المؤرخ إن شاء أن يخلّف طابعه أن يبرهن على المنهجية، والثبات، والصمود، والوثوق: إن فكرة النظام، الانتظام، الوحدة امر ضروري لبناء **عمل**. فالتشتت خطر، ولكن في وسع مؤرخين المجازفة ليزيدوا لذتهم. وكل شيء يتعلق بما يود أحدهم أن يفعل خلال ثلاثين أو أربعين سنة يخصها بالمهنة. إن المؤرخ، على الرغم من الظواهر، إنسان حيسوب، **لاعب** حذر. إنه يلعب وهو يرقى بفرصه إلى الحد الأقصى.

القاعدة الرابعة

ينبغي إجادة استعمال الزمان. فالزمان هو الشيء الذي يعوز المؤرخ بالدرجة الاولى، فهو لاهث دوماً، تسحقه التزاماته، وأعماله (متأخرة) دوماً.

المؤرخ محكوم عليه بطبعه أن يستعمل وقتاً نادراً. عليه أن يحسب جهوده

(*) المقال المذكور سابقاً

(**) يقال بوجه عام: «ليست لديه فكرة خاصة، يكرر X حرفياً، إننا نعلم دائماً ماسيقول، إنه لايتجدد».

بأكبر دقة ممكنة: إنه يعرف ثقل الوقت الذي يضعف، ويتآكل، ويهدم. ومن المعلوم أن المرء لايستعمل الوقت على نحو واحد في الخامسة والعشرين من العمر، أو في الاربعين، أو في الستين، فالمؤرخ الشاب الذي يحب: الحياة، التكاسل(*)، الاستمتاع بالوقت الذي يمر، يجد نفسه منزعجاً في الغالب، لقصر الوقت، لأن صنع التاريخ بجدٍ والغوص بعمق في مجال التنقيب يفترض هدراً كبيراً للوقت: إن الشيخوخة تبدأ مبكراً في التاريخ. وبقول أدق يرى المؤرخ في وقت جد مبكر مالن يستطيع فعله. وينجم عن ذلك أنه يتوجب على المؤرخ ادارة ماتتعذر ادارته، واستعمال المؤرخ وقته خير استعمال.

- ينبغي أن يعرف مبكرا أن الزمان شيء نادر وأن يستخلص نتائج ذلك. كان (بارّه) Barres يقول: «**انني سأترك عملاً أدنى بكثير من العمل الذي كان في وسعي انتاجه، لأنني لا أعرف ان امزق الرسائل دون فتحها، ولا الامتناع عن إجابة الفضوليين الذين لايحصيهم عدّ والذين يطلبون مني صفحة صغيرة**». على المؤرخ ان يحسن المقاومة، ألاّ يسرف في المجاملة.

- ينبغي أن نفهم أننا نشيد مبنى، واننا نحتاج إلى دعامات، وهياكل، وسقوف: ولذا يترتب علينا اذا شئنا ألاّ ندع البناء ناقصاً وان نجيد تنظيم جهدنا، ان نبرمج بذكاء، وان نعي اننا لانملك عدداً غير محدّد من السنوات امامنا (لقد كانت **النظرية** القديمة - وهي تحفة نظام الرفقة - تعلّم اجادة تنظيم الجهد)(**).

(*) ليكون المرء مؤرخاً يفترض اجادته التسكع، التكاسل، التشرد، «اللاتعجل»، زيارة المتاحف، الدأب على المكتبات، على بائعي توقيعات الشخصيات المتميزة: فالتسكع هو الذي يجلب في الغالب أجمل الكشوف وإن الكسول، أو مدّعي الكسل، يتحلى بأفضل «الحدوس».

(**) يعرف المؤرخ غير المحترف، واسع المعرفة المحلي - الذي مارس مهنة أخرى، يعرف في الغالب كيف يحسب على نحو أفضل، يحسب وقته، وينظّم عمله، وهو يجيد الوعي بقلة الوقت الذي يتمتع به (إنه لاينجز دوماً مايعمل).

- ينبغي فرز المهم (انظر فيما يلي: الفصل الثامن) - أو مايمكن أن يغدو مهماً - عما ليس بمهم: مثال ذلك هذا المقال الصغير سيكون في الغالب أكثر اهمية بدلالته، وبمن يهمهم أمره - بعد س سنة - من كتاب ضخم من كتب التاريخ التكراري: يجب التفكير في الديمومة المحتملة لما نفعل.

القاعدة الخامسة:

ينبغي اجتناب الغلط في تقدير مايمكن للمرء أن يستخلص من ذاته، وأن يحسن **معرفة حدوده**: تحاشي القاء خطاب عند اضطراب الفكر، اجتناب صنع تاريخ العلوم عندما تعوز الثقافة العلمية، وتجنّب صنع تاريخ المشروعات الاقتصادية اذا كان المؤرخ يكره المحاسبة، وعلى المرء الامتناع عن إدارة مجلة اذا أعوزته المواهب الدبلوماسية: تلك قواعد بسيطة من قواعد الحذر. يجب الامتناع عن العمل، أو عن رغبة العمل، في الوقت اللا موائم، يجب التكيف مع الظروف، مع الجماهير، ينبغي الرغبة في إعلان الحقيقة مهما يكن في الأمر حتى لو آمن المرء ايماناً شديداً بأمر من الأمور. إن كون المرء مؤرخاً يفترض نوعاً من القدرة على **الحذر** من الذات: يجب التحلي بحس النسبية، بحس (الموائم)، تصديق كل شيء، قول أي شيء. المؤرخ أليف التفطن للأهواء الانسانية، للحماقة، للحسابات الدنيئة، للأمور المختلطة: إنه يسيء الظن حكماً بما يقول الآخرون. والمهنة تقود إلى اللاتصديق، إلى الحفاظ على بعض مسافة عما يفعل، والحق انه لايؤمن بمتانة مايكتب، ولا بديمومته. والريبية تتميز بانها تحمي من بعض الأوهام. ولكننا لاندري لماذا لايتصف المؤرخون بانهم ريبيون دائماً: يجب أن يكونوا قد عاشوا خارج مكاتبهم، وان يكونوا اضطلعوا ببعض المسؤوليات حتى يجيدوا فهم حدود مايفعلون أو يكتبون(*). لنذكّر بأن اللاعب الجيد ينبغي ألاّ يسرف في العودة باللائمة على اللعب: وإلا أصبح لاعباً سيئاً.

(*) انظر رأي (رينه ريمون) المذكور فيما بعد : الخاتمة.

3 ـ واجبات المؤرخ

في وسعنا التساؤل عن **واجبات** المؤرخ **اللازبة**: اننا ندرك كل الادراك مطلب الدقة و الامانة و الجد و الدأب مما يترتب عليه أن يتحلى به إبان عمله و في الختام . و لكن لعل من الواجب المضي إلى أبعد. فاذا تساءل المؤرخ: **ماذا ينبغي أن أعمل؟ ماذا استطيع أن أفعل؟** فلن يكون الجوابان بديهيين. ذلك أن المؤرخ يفترض عدداً من المهن أو **الوظائف** وهو محكوم في الغالب بالاضطلاع باختيارات صعبة. ونحن نرى بوضوح ماهي رسالة التعليم، والإشراف على البحوث، وكتابة مقالات أو نقل المعرفة، وندرك كذلك بوضوح ماذا يعني البحث بالمعنى الصحيح، التعمق، التنقيب في قطاع، ولكننا نرى بتقدير أسوأ هذه المهمات أو الالزامات المتعددة، (الخارجية) التي تلتهم وقت المؤرخ، وتصبح في الغالب قاهرة ذلك أن لكل انسان في هذا المجال طرائقه، وأولوياته، ولذاته الخفية، ومن العسير جداً التعميم. ولكننا ندرك أحياناً أن من العسير الإلمام بمؤرخ كتب قليلاً، ولكنه علم كثيراً، وأشرف، وأدار، وأحدث تأثيراً، ولم ينكفىء على نفسه في مكتبه. وغير خافٍ أن هذه (الملحقات) بالمهنة تزداد إلحافاً (ونحن ندع جانباً مختلف المجالس، أو اللجان الجامعية التي تبدد وقتاً ثميناً): مالنصيب الذي ينبغي أن نخصها به؟ كيف نواجهها؟ كيف نختار؟ إن الصانع الماهر في التاريخ هو ذاك الذي لم يهمل هذه الالزامات الملحقة التي تحتقر في الغالب، وتكون مكافأتها هزيلة، والتي (يعوزها الألق الرومانسي)، كما لاحظ (مارك بلوخ)، ولكنها، في الغالب، أمور أساسية في المهنة، وهي تكشف النقاب عن **واجبات لازبة** ناجمة عن تقاليد الحرفة، وهي تستلزم في الغالب فطنة، ودبلوماسية، ومرونة، وسرعة خاطر. فلنسعَ، على نحو اعتسافي محض، إلى تعداد هذه (المهن) الملحقة:

1 ـ **التفكير في طرائق التاريخ**، في الابستمولوجيا: إن نصيب هذه

الابحاث ضئيل جداً باسراف في فرنسة(*). ويترتب على كل امرئ في مجاله أن يتعمق الموازنات، التأملات الضرورية (ندوات المناهج، ايضاح الصلات بين العلوم).

2 ـ التفكير في **الآفاق المستقبلية** للدراسات التاريخية (أو لأحد فروعها)، تفكير في شروط نمائها(**)، في تنوع الطلبات، في حال الدراسة في سنتي 2010 ـ 2020:

ينبغي على كل مؤرخ أن يوجّه جهده في هذا المنحى.

3 ـ التفكير في **جدل** الدراسة التاريخية. كان (دانيل روش) يقول سنة 1986(***) «**إن إنفصال التعليم العالي عن الثانوي لن يكفّ عن الازدياد اذا رفضنا، على نقيض علماء الرياضيات والفيزياء، التساؤل عن جدل اختصاصنا**». ومن الملاحظ أن المؤرخين الجامعيين لايدعمون إلا دعماً جد ضئيل معلمي الثانوي وإن مهمة هؤلاء مهمة جاحدة، كما يدعمون جهود التجديد وإعادة التدريب في التاريخ: وهذا موضوع جدير بالتأمل(****).

4 ـ **الاتصال** بجميع أشكاله: تكيف الدراسات وفق الجمهور الواسع، استخدام وسائل الإعلام الجماهيري (التلفزة ،الإذاعة ،الإذاعات المحلية، شُرُط

(*) لايُعنى المؤرخون بالمنهجية (أو بالابستمولوجيا) إلا قليلاً في الغالب لأنهم يكادون لا يستطيبون تلك المواد ويحكمون بأنها شأن فلسفي (لكل مهنته)، وعلى الأخص لأن من العسير جداً عليهم تفسير المواضعات، والأسس التصورية لمهنتهم (ذاك بديهي، لأنها ممارسة لاتحتاج لبيان). وهذا مايفسر بلا ريب مثلاً غياب فحص نظري لأسس التاريخ الاقتصادي (اذا يُكتفى باعتماد أحكام مبيّتة بسيطة).

(**) انظر ج. تويليه G.THUILLIER كيف ننمّي قطاع بحث في التاريخ المعاصر، الحركة ـ الاجتماعية 1988 ص 31 ـ 43 والمثال على ذلك جان تولار J.TULARD : الدفاع عن التاريخ الإداري وإيضاحه ـ **المجلة الإدراية** 1987 ص 422 ـ 426.

(***) المقال المذكور.

(****) ماعدد مؤرخي التعليم الذين يشاركون في منشورات وأعمال التكوين في المراكز المحلية أو الاقليمية للتوثيق التربوي؟

الفيديو) المجلات و المسلسلات. و هذا المجال من المجالات التي يبلغ ضعف التفكير فيها اكثر ما يبلغ ،ولا ندري كيف يستجاب لطلب اجتماعي (غير رسمي) (و نحن لا نكاد نسعى لتحليله).

5 ـ **الإتصالات مع المؤرخين الاجانب**: إننا نملك في الغالب تصوراً فرنسياً خالصاً للعلوم، و لا نُعنى إلا قليلاً بإسراف بالمقارنات المنهجية، و بنقل المستجدات (اللهم إلا في العلوم الدولية بطبعها مثل تاريخ الفن و تاريخ الأدب)، أو بقول أدق بالنظرة الأمامية إلى هذه المعلومات(*).

6 ـ **مساعدة الشباب**: إن الوقت المخصَّص للإشراف على البحوث، و لتكوين الشباب، وتشجيعهم آخذ بالنماء، ولكن على نحو ما كان يقوله عالم الإقتصاد (شارل ريست) CH.RIST سنة 1926: «من أروع متع التعليم الإتصال بالعقول الشابة التي مابرحت الحماسة و الفضول عندها يحتفظان بنضارتهما (...). إنهم يقصدون الكبار ظانين انهم يمتحون منهم خدمة، و لا يدركون أننا نحن المدينون لهم في أغلب الأحيان»: إنها الرسالة الاكثر قبولاً.

7 ـ **مساعدة المؤرخين غير المحترفين**، وواسعي المعرفة المحليين الذين ينهضون بدور أساسي في الإنتاج التاريخي(**): و هذا قطاع مهمل جداً في الغالب.

8 ـ **دعم الجمعيات العلمية** ـ القومية والمحلية ـ و هي مركز مبادهة، ومقارنة وأحياناً (تجريب): وإن هذا الدور دور اساسي على الرغم من أن الصيغة تبدو جد تقليدية في الغالب.

9 ـ **أعمال حماية** المحفوظات (الخاصة أوالعامة)، وحماية المكتبات العامة، والآثار، واللوحات: وهذا (الدور) مهمل في الغالب ولكنه دور أساسي لأنه يتصل بحماية مصالح مؤرخي المستقبل (إنقاذ محفوظات مصرف، الحصول

(*) من شأن جرد مبادهات المؤسسات أو الجامعات أن يبين بيسر البقع الفارغة في المصوَّر.

(**) لقد رسم (بول لويليوت) الخطوط الأُساسية لنظرية هذا التاريخ المحلي، (التاريخ المحلي والتاريخ السياسي) ـ حوليات ESC 1974 ص 139 ـ 150.

منه على تمويل محفوظات الأقاليم وهو بلا مراء أكثر أهمية من كتابة مقال عن هذا المصرف). وغير خافٍ أن الإهمال كبير في هذا المجال(*).

10 ـ **مساعدة إنتاج أدوات العمل:** كُتب دليل البحوث، كُتب جرد، كُتب مراجع، فهارس المتاحف، حال المصادر، ملاحظات منهجية، بنوك المعطيات، إننا نغلو في نسيان أهمية هذه الأعمال: كَتَبَ (مارك بلوخ): (إننا نرى أحياناً متعالمين طائشين يستغربون الوقت الذي ينفقه (...) بعض واسعي المعرفة لتأليف مثل هذه الكتب (...) كما لو أن تبديد الطاقة(**) الأكثر افراطاً لم يكن يحسب وفراً، بفضل الساعات المبذولة على أعمال ينقصها بالتأكيد ألق رومانسي، لئلا تكون بلاجاذبية خفيّة). ينبغي دعم هذه الأعمال وتشجيعها وتكريمها: فهي في الغالب شرط لازب لنمو العلم.

11 ـ **دعم نشر تقنيات مساعدة جديدة للبحث** (معلوماتية، بنوك المعطيات، إقامة محفوظات شفهية، محفوظات سمعية ـ بصرية) يمكنها تغيير طرائق البحث خلال عشرين أو ثلاثين عاماً: إن الوقت المخصّص لهذا (الدور) قد يكون الأكثر انتاجاً، والأمر أمر استثمارات **طويلة الأجل** ومن الواجب عدم إهمالها.

إن المؤرخين، بسائق الخجل أو الوسواس أو اللامبالاة، لايعنون في كثير جداً من الأحوال بهذه المهمات الملحقة، ولا يفهمون دوماً أهمية هذه الأفكار المستقبلية، هذه التجديدات، ويفضّلون حراثة حقلهم على الطريقة التقليدية، ولا يفكرون فيما سيحدث عام 2020 أو 2030 . أجل، إن الوقت يعوزهم: ولكن الوقت ليس كل شيء: فلكل واحد بحسب منزلته ووسائله واتباعه **واجبات لازبة** في هذا المجال، وعليه أن يتساءل عمّا يفعل أو لايفعل.

(*) على هذا النحو تُهمل أوراق الأساتذة، أوراق واسعي المعرفة فتتلف ... والمؤرخون يبالغون في اللا اكتراث بطرق جمع المخطوطات المعاصرة وحفظها. ولم يقم أحد بعد بجمع **محفوظات شفهية** لدى المؤرخين.

(**) امتداح التاريخ طبعة 1974 ص 66.

الفصل الثامن

المهم في التاريخ

(مَن الحرفي الذي سلخ في المهنة عمره وتساءل ذات مرة، دون انقباض نَفْس، إن كان قد أحسن استعمال عمره؟). هذه الجملة الصغيرة التي كتبها (مارك بلوخ) سنة 1941(*)، جديرة بان نتوقف عندها: إن القاء نظرة فاحصة على ما فعل المرء، (أو لم يفعل) تمثل على الدوام تدريباً شاقاً في مهنة فكرية. ماذا يعني حسن **استعمال العمر** في نظر المؤرخ؟ هل يعني استعمالاً معقولاً (أو منهجياً)؟ استعمالاً رهناً بأشياء جادّة مهمة؟ اننا نلمس هنا المشكلات الرهيفة، مشكلات الاخلاق، قواعد السلوك الشخصي: ولكن هل يعدل ذلك سبب اجتناب طرحها، حتى لوكان في الأمر بعض إعتساف حتماً؟ هل يجب أن نخفي عن أعين المؤرخين الشباب أن اختياراتهم أمور جدية؟ ألا إن الأفضل هو التصدي لهذه المشكلات، ولو بصورة مواربة.

(*) امتداح التاريخ ـ طبعة 1974 . كان (مارك بلوخ) يذكّر في نهاية المقدمة بضروروة أن يفكر المؤرخون الشباب بممارسة مهنتهم: «أود للمؤرخين المحترفين، ولا سيما الشباب، أن يعتادوا على التفكير في تردداتهم، هذه الصنوف من «الندم» الجاثمة في مهنتنا. وسيكون ذلك بالنسبة اليهم أفضل لحظة للتهيؤ لتوجيه جهودهم توجيهاً معقولاً من جراء اختيارهم المدروس...». **بصورة مقعولة:** إن تأمل المرء عمله يقوده إلى توجيه وقته توجيهاً معقولاً.

ما المهم في التاريخ؟ ان هذا السؤال يثير ازعاجاً كبيراً(*)، ولا يمكننا أن نجيب عنه سوى إجابات جزئية غير مرضية. الشيء **المهم** يغطي وقائع مختلفة يحسن وعيها بدقة:

- من جهة أولى، إنه ماينبغي فعله، مبادرته، إنه المهم **بالنسبة لي**: المهم يحيل على سيرة حياتي، على مستقبلي.

- من جهة أخرى، إنه ماينبغي رؤيته، إدراكه، فهمه: الأهمية هنا تأملية، لاشخصية، إننا في عالم الأفكار، وثمة شيء من الفاصل بالضرورة بين هذه الأفكار وبين مشروعي.

- اخيراً، انه ماينبغي نقله، ماينبغي إظهاره، **إنتاجه، ابداءه** للآخرين. المهم هو ماأُظهر، مانُقل. ولكن هذا المعنى لايتضح دوماً لأننا لانملك سوى بضعة سنين صالحة لنقول مايهم قوله، لنبدي ماهو مهم، وإن (إنتاج) المؤرخ هو بالضرورة نهب موزع بين الدروس، والمقالات، و(الاشراف على البحوث، وهذا أمر يقودنا، لامحالة، كما رأينا إلى بعض الهدر. وإن عبوديات المهنة، وهي تجعل المرء مستغرقاً في قواعد اللعبة، لاتدع له في الأغلب من الأحيان وقتاً ليقول، أو لينتج (المهم) ، لينقل (ما يهم فعله).

يتضح أن كلمة مهم ترغمنا على تحليلات في **خواء**، تحليلات شخصية جداً : **أتراني أجدت فعل ماكان من المهم فعله؟**

آ) **المهم**، بالتعريف، يأبق من المؤرخ غالباً، ولا يني يفلت منه: إن المهم في بعض الفروع (ومثلاً في التاريخ القديم) سيفلت منا دوماً، وحتى في التاريخ المعاصر. الشيء الاساسي سيفلت منا: موت رجل دولة يفقدنا راسمالاً نادراً من الذاكرة على نحو لايُعوض. وغير خافٍ أن مايفلت من المؤرخ هو مالايوجد في

(*) اللفظ يتكرر غالباً: «هذا الكتاب مهم، لقد عالج ماكان مهماً، ماسيبدو مهماً فيما بعد في هذا الكتاب، مايعتقد المؤلف أنه مهم»: إن الصيغ الرامية إلى الحكم بالأهمية صيغ كثيرة.

المحفوظات، مالا يمكن بلوغه والذي يكون في الغالب هو (الأهم): كالصِّلات بين الاشخاص وإدراك المستقبل، إذ: «ان المستقبل كما كان يتصوره انسان الماضي يشكلّ جزءاً مهماً من تاريخنا حسبما كان يصرّح فاليري»(*)، وما يفلت من المؤرخ أيضاً حياة الناس العاديين... المؤرخ محكوم عليه بان **لايعرف**، يجب عليه التوقف في **ماقبل**، إنه لايستطيع إدراك الخطاب الداخلي، الادراكات الفردية، الاحلام. ومن المعلوم ان مايبدو مهماً في التاريخ ليس بالاحصاءات، ولا الأرقام، ولا التمثيلات العامية، الجزئية - بل إنه المُعاش، المُدرك، فحوى الحلم، اللابين.. اجل، إن لكل مؤرخ قواعده الشخصية **لتعريف** المهم في مجاله، ولتمييز المهم عما هو أكثر اهمية. وعلى هذا النحو يبرز المؤرخ (افتراقه). إنه يدرك مايبدو له (الأكثر اهمية)، ولكنه لايجرؤ على الجهر به بدافع الوسواس أو الخجل.إن اعلان (الاكثر أهمية) يعدل إقامة صوى - بصورة موقوته - وتثبيت تراتبات، أولويات عمل: وذاك عمل صعب أحياناً، شاق، والمرء في اغلب الأحيان ينسى النهوض بهذا الجهد الضروري من التفكير التمهيدي في كل مشروع (مثال ذلك: يجب الحرص لدى كتابة سيرة حياة على التفكير في مالا نعرف، في المناطق المعتمة، في المموّه، في السرّي، في مالايُذكر أبداً). وفي كل خطوة من خطى البحث، يحسن تخمين ماهو المهم الذي لانتحدث عنه، والتفكير بما ينبغي الاسراع بالقيام به، بالقطاعات الاستراتيجية التي ننسى ارتيادها لانها (صعبة) باسراف، (تقنية) باسراف (تاريخ النقود أو تاريخ الصلاة)، والتي ينبغي، بالرغم من ذلك، اقتحامها (مهما يكن ثمن الجهد أو عوز المصادر). وكذلك ينبغي على المؤرخ ان يفكر في مايهم نقله، وفي طرق النقل (التراكيب خطرة، والمرء عرضة في الغالب للسقوط في الخطاب عن التاريخ، ولا يكون لديه بالضرورة سوى نظرات جزئية، موقوته، وربما كان (دليل مصادر) عمل أكثر أهمية من مثل ذاك التركيب اللاهث الموجّه للجمهور الواسع، التركيب الآيل الى البلى.

(*) دفاتر - (20 ص 276)

إننا نرى بوضوح أيان يقودنا ذلك: إلى قائمة بالاولويات، إلى **مراجعات** دورية لما هو مهم. والمؤرخ مضطر حكماً **لجرد** مافعل، وتمييز المهم في كتلة أعماله، تمييز ماسيقاوم الأيام، عما ليس بمهم ... **فهو** سجين ماضيه الى حد كبير أو صغير، سجين بعض أوهام المهنة، **اوهام عن الذات**: (المهم) امر يدركه هو بصورة مبكرة جداً، ولكنه ينصرف عنه من جراء ضغط اليومي، ضغط عبوديات المهنة، والأزياء الايديولوجية، وينتهي به الأمر إلى أن يعمل في **الأقل أهمية**، لينسى (ماكان من المهم صنعه) - وفي مرحلة من مراحل العمر، يحاول الرجوع - ولكن سدى - إلى ماكان مهماً، أو كان يبدو مهماً عندما كان هو أنضر عوداً(*)... ليس من السهل وعي هذه الاشكال من الاهتراء. المؤرخ مفتون دوماً بوصف عمله بانه **أملس، دون مشكلة.**

وإن قولنا عن شيئ من انتاجه إنه مهم، أو إنه أكثر أهمية، تحول يزعجه - وهو يعرف حق المعرفة إنه لم ينتج كل ماكان في وسعه أن ينتج من أمر مهم: وهذه العودة على الذات عودة رهيب. ولكن اين هو الحق في هذا المجال؟ إن الأهمية ترجع إلى الخيالي. ومن المحتمل، أو الثابت أحياناً، أن مأحسبه مهماً والذي يشعرني باللذة والنفع لأهمية له في نظر زيد أو عمرو. فثمة بالضرورة طائفة تامة من تفاعل الظواهر والأوهام مما لايحب المرء إيضاحه إلا قليلاً.

ب - إن التفكير في المهم هو في الوقت ذاته تفكير في معنى عمل المؤرخ، وقيمه. بيد أن ذلك لاينطوي على أفكار جلية ولا نيرّة: والمؤرخ لايكاد يميز في العادة أهمية مايفعل، وإن حكمه بالضرورة زائف أو منحرف، وأوهامه مألوفة.

(*) المؤرخ يدور غالباً حول حدوسه الأولى التي ترجع إلى الخمسة والعشرين أو الثلاثين من عمره، أحلام شبابه التي كانت «أكثرها خصباً». ولكن عندما يعود إليها في سن النضج (أو في سن الإحالة على المعاش) يلقى مشقة كبرى في تحقيق هذه الحدوس. فلم يبق له ذاك الإيمان، وقد فقد كل **مالا أعرف** مما يتيح تخطي العوائق، والنجاح في ما كان يبدو متعذراً، إرادة حياة كانت تيسّر له أن يكون **مؤرخ المستقبل.**

والمرء لايكاد يحسن معالجة هذه المشكلات. ولعل من الواجب اللجوء إلى معالجتها معالجة اختبارية محضة: لنحاول تقديم بعض **التعريفات:**

اولاً: المهم هو مايعكر الصفو، يربك، يزعج، مايعارض السطح الأملس، يعارض طمانينة **الجاهز.** إنه مايوسوس، مايراد تحقيقه **بالرغم** من رأي الأساتذة، والاصدقاء وضيق الوقت: المرء يحس بالحاح معالجة هذا الموضوع المحرّم، إرتياد هذا الفراغ في المصوَّر. وإن حدس الأهمية ذاك يهب شجاعة الإقدام، التجديد، بل والاقتحام: ونحن نجدنا اذ ذاك أمام مغامرة المؤرخ الفردية (ولكن ذلك نادر في غضون الاحتراف).

ثانياً: المهم هو المخفي، المموَّه، المكتوم، المدفون في كتلة التقاليد، والأزياء الايديولوجية، في التفكير **في الذات** لمكافحة الظواهر، **وإماطة اللثام** عن المُبْعَد، لاكتشاف النواة الاصلية، ومثلاً لادراك أن تاريخ الصلاة في التاريخ الديني هو (الشيء المهم) أو أن الملِّح في التاريخ الاجتماعي هو بحث تاريخ التوليد.

ثالثاً: المهم هوماينبغي بالضرورة تعقيده بدل الاستسلام إلى أفكار بسيطة، ملساء، مطمئنة: يجب على المؤرخ أن يعقِّد (انظر فيما سبق: الأوهام المهنية)، ان يعمّق، أن ينقّب، ولكنه لن يضع لتعقيده نهاية. فثمة دوماً جوانب عائمة، لايقينية، لامحدَّدة، وإن الغواية الكبيرة ـ لاسباب تربوية بديهية ـ غواية التبسيط، والتقرير (والكتابة): **(لقد جرى الأمر على هذا النحو)**، بل ونقول: **(لقد حدث كل شيء كما لو).** إنه شرك يقع المرء فيه بيسر عظيم بنتيجة الكسل أو السهولة أو تذوق الوضوح، أو الاهتمام بـ (الازياء) (مثال ذلك في تاريخ المؤسسات أو تاريخ الطب). بيد أن من المعلوم ان على المؤرخ أن ينظر ببراعة أنه لايعرف الشئ الكثير، وأنه يبقى على الدوام **قبل النهاية** (مهما تكن غزارة المصادر: ولكن المؤرخ يرضخ، في جلّ الأحيان للبلاغة وللتهور في مسعى البرهان، في أن (يقول الحقيقة)....

رابعاً: المهم هو مايتغير أيضاً على مرّ الأيام، مايرتبط بالزمان الخاص بالمؤرخ. وينبغي الانتباه بعناية كبيرة الى زمن الأهمية: هناك ماهو مهم قبل

خمسة عشر عاماً، وهناك ماهو مهم اليوم، ماأشعر سلفاً بانه مهم، ولكنني سأخفق ربما اذا شئت إظهاره، (انتاجه)، وهناك أيضاً مااتنبأ بانه لابد مهم لي بعد (س) سنة (إن شاء الله) (ليس لدي سوى حدس ناقص بذلك، حدس جزئي). إن المهم لدي الآن لن يستمر. فجميع الآفاق تنزلق، تمحي، لاشي بدائم: وعندما نعي هذا الانزلاق، هذا الوهن، قد لانكتب على النحو ذاته مقالة أو كتاباً.

إننا ندرك الصعوبة القصوى للتنبؤ **بدروب المؤرخ**، لادراك الاخطاء، الندم، الاخفاق: فذاك امر محال في الغالب. زد على ذلك الملاحظة التالية: عندما كنا شباباً كانت لدينا بعض أفكار صحيحة، بارعة، ذكية، ولكننا لم **نحسن تثميرها،** فأخفقنا في صنع ماكان يجب صنعه «المهنة»، الظروف، الآخرون، كل ذلك يصلح ذرائع تمويه سهل)، على نحو يفرض وجوب المضي الى نوع من **فحص الضمير**، وطرح بعض اسئلة اساسية لقياس الطريق الواجب إتباعه وتحديد صوى؟:

1 ـ هل لما صنعتُ الأهمية التي اعزوها إليه؟

2 ـ ماخصوبة ما أصنع بعد (س) سنه؟ هلاَّ أجدت الحساب الضروري لعامل البلى؟

3 ـ هل ينبغي علي تغيير (المجال)؟ هل ينبغي علي أن انتقل الى مايبدو لي اليوم انه أكثر أهمية أو الى ما سيكون أكثر أهمية **بعد (س) سنة**؟ إننا نلمس لبس مثل هذه الأسئلة: والمرء لايكاد يصوغها إلا بمناسبة أزمات خطرة إلى حد كبير أو صغير: ازمة شك في الذات، أزمة تثبيط، ازمات تشتت، تعب من المهنة... إن كل مؤرخ مرغم في وقت من الأوقات على **قياس الدرب الذي قطعه، على تحديد موقعه** (وهو واعٍ بالحد الأخير: موت عمله، النسيان). ولكن هذه النظرات كلها كريهة غاية الكراهية: وكلما تقدم الانسان في السن حاول أحياناً الإفلات من التساؤل الى اقصى الحدود، وغدا خجولاً، ونسي طوعاً (ماهو مهم)، وأراد **(كسب الوقت)**.

ح - تُرى أمن الممكن استخلاص قواعد شخصية من هذه الأفكار؟ لابد من اللجوء إلى كثير من الحيطة لأن الأمر كله يتبع المزاج الفردي، السجية: لكل امرئ عاداته الصغيرة للدفاع عن ذاته ضد الزمان. وعلى الرغم من ذلك يمكن لفت الانتباه إلى بعض النتائج:

النتيجة الاولى: اذا كنتُ واعياً لما هو مهم لدي (والذي يهمني أن أفعله) فأنا لن أفعل الاشياء **على النحو ذاته**، لن أتبع في بحوثي الطرائق ذاتها: مثال ذلك، سأعقّد الأمور عن عمد، سأسعى للمضي إلى **ماوراء** الأمور، ساستغل (الأكثر اهمية)، سأحدّد (أولويات) (وسأهمل بعض القطاعات «الأقل أهمية»). ان وعي المهم يوجب القيام **بمراجعات** مذهبية، بل والى سلوك مغاير: مثلاً، يجب رفض فعل مالا أهمية له، القلق من **هدر** الطاقة، من بعض التشتت اثناء العمل، المحاضرات، الأسفار، وبكلمة واحدة، يجب على المؤرخ **إدارة** وقته على نحو أفضل (أو صورة وقته على نحو أفضل)، الذود عن الذات حيال الآخرين ذوداً أفضل... ينبغي إجادة أيان يمضون بنا: إن (الأهم) هو ما به أرمي إلى البقاء، إلى الانتصار على النسيان، الموت، الى تجاوز البلى - وهو مسعى (محال) بالبداهة (يعي ذلك كل مؤرخ) ولكن ينبغي أن يعمل «كما لو كان ممكناً»: الموت - موت الأعمال - هو، كما نذكر، القاعدة، الوحيدة في اللعب مع **اللذة**، وينبغي أن نحسن استخلاص الدرس منها.

النتيجة الثانية: مهما تكن سن المؤرخ فإن عليه أن يُحسن استعمال الوقت الذي يبقى له. إننا ندرك، في وقت من أوقات العمر، ماهو مهم، ولكننا لم نبادر إلى ارتياده، ندرك **ماأهملنا أثناء عملنا**، وهذه المشاهدة رهيبة أحياناً. ينبغي طرح بعض أسئلة على الذات (ولو كانت اسئلة مؤلمة):

1 - ماالشيء المهم الذي نسيت ان أفعله؟

2 - مانصيب الوهم فيما حسبتُ البارحة، أو ماأحسب اليوم، انه مهم؟

3 - ماالخطاء الاتجاه التي اقترفتها؟

4 - اتراني كذبت على نفسي فيما كان من المهم صنعه؟

لقد كان (سلفستر بونار) S. BONNARD يطرح أو يكاد أن يطرح - هذا النوع من الأسئلة. إن التاريخ مهنة مهلكة. ونحن ندنو هنا من حالات مرض المؤرخ، فهو يعرف أحياناً الشك في ذاته، التثبيط، **القرف** من البحث، سوء الظن، الحسد، الغيرة. وهذا مايفسر تراجع المؤرخ أمام مايهم صنعه - حتى عندما يجيد ادراكه - من جراء وساوس، أو ضعف، أو خوف (عندما يكون أمر مهماً فإنه لايجرؤ على قوله، على تأكيده: (هذا أمر مهم)، إنه يخشى التهكم، يرتاب في ذاته، يخاف أن ينفق في عمله وقتاً، طاقة).

النتيجة الثالثة: عندما يجيد المرء معرفة المهم، يجدر به أيضاً أن يفكر في بعض وجوه المؤرخ: **التشتت**، خطر (ولكن من الواجب أن يعرف كيف يضيع وقته)، طول مدة الأعمال (ألا يكون هامشٌ قصيرٌ كتبه لوسيان فيفر أدوم عمراً من كتاب ضخم معين؟)، التفكير المنهجي (**مساعدة الآخر** على التفكير، أليس ذلك هو الأكثر أهمية؟)، الحذر من السياسة (كل مافي التاريخ «مسيَّس» آيل الى البلى)، الحظ (المهم في بحث من البحوث يرجع أحياناً الى العناية الربانية: تلك المصادفة، ذاك العرض، تللك الصداقة...)، فن طرح **الأسئلة الجيدة** (إن طرح سؤال بذكاء يفوق من حيث الأهمية أحياناً - ويفوق بالصعوبة، الاجابة عنه)، اللذة (ليس المهم دوماً هو الذي يجلب «اللذة» الأكبر).

إن التفكير في الأهمية قد يقود إلى بعض أشكال الريبية. المؤرخ ليس البتة كائناً عقلانياً، يشك دون غلو في التساؤل، انه يحاول طمأنينة فكره. ولكن ذلك يعدل فكرة يترتب عليه أن يعتنقها بصورة شخصية، بسائق الفضول، كي يعرف العون الذي تستطيع أن ترفده به عند الاقتضاء: إنما **تحديد مايجب تحديده** أمر ضروري لمن شاء إن يجيد فهم **وظيفته**.

الفصل التاسع

جمهور المؤرخ

المؤرخ يكتب حتى يُقرأ. يقرأه زملاؤه المتخصصون وطلابه إن كان استاذاً. واذ ذاك يكون الكتاب استطالة تتمم التعليم وتزيده دقة. ولكن المؤرخ، وان لم يكن عامل تعميم وحسب ولا روائياً باحثاً عن موضوع، انما يتمنى أن يمس جمهوراً كبيراً. فمن المهم اذن ان نعرف طبيعة هذا الجمهور، وامانيه، والواجبات المترتبة نحوه على مؤلف كتاب في التاريخ.

1 ـ القارىء

لقد اتسع جمهور المؤرخ اتساعاً ضخماً. اجل لقد لقي **تاريخ عهد القنصلية والامبراطورية** لـ (تيير) THIERS اقبالاً شديداً في القرن التاسع عشر، ولكنه لم يبلغ ماقد يتبادر إلى الذهن. وكذلك الكتاب الكبير لـ (لافيس) LAVISSE المنشور لدى (هاشيت) بعنوان تاريخ فرنسة. وفي السنوات العشر الأخيرة تجاوز عدد نسخ بعض تراجم الحياة المائة الف نسخة: كتاب (بلوش) BLUCHE بعنوان **لويس الرابع عشر**، كتاب (موراي كندال) MURRAY KENDALL بعنوان **لويس السادس عشر**، كتاب (فافيه) FAVIER بعنوان **فيليب الجميل** ... فاذا فرضنا ان النسخة الواحدة يقرؤها وسطياً اثنا عشر شخصاً، أدركنا أن هذه المؤلفات، وان كانت ذات

مستوى رفيع، قد بلغت جمهوراً أكبر من الجمهور الذي عرفة كتاب (لافيس) عن «لويس الرابع عشر» أو كتاب (شامبيون) CHAMPION عن «**لويس الحادي عشر**». إننا نعرف الاقبال الذي حظي به كتاب (مونتايو) (MONTAILLO)، **قرية اوكسيتانية** لـ (روي لودري) ROY LADURIE أو كتب (بيير ميكل) P. MIQUEL. الجامعة عن الحربين العالميتين. وما بالكم بكتب (آلان ديكو) A. DECAUX. ولا سيما كتب (اندره كاستيلو) A. CASTELOT. (**ماري ـ انطوانيت، نابليون** ...) المعدَّة للجمهور الكبير.

لقد فقد الشعر قراءه منذ زمن بعيد. ويعاني النوع الرومانسي من مبالغات الرواية الجديدة. بل إن قصص (بولار) POLAR البوليسية ذاتها تعاني من الانبهار، وبالمقابل فإن التاريخ يمضي بصحة جيدة.

ماأسباب هذه الغصة؟

إنها غصة اصطفاء. هناك أولاً افتتان بالعظماء: نابليون يحتل المرتبة الاولى (ان كتاباً عن نابليون يكفل حداً أدنى من مبيع الفي نسخة مهما تكن طبيعة الكتاب، يليه (لويس الرابع عشر)، (وجان دارك) وعظماء الثورة). وبالمقابل، اصيبت سلسلة عنوانها «المجهولون في التاريخ» باخفاق نسبي، دون مسوغ كبير.

ثم هناك سحر بعض الفترات. لقد انجبت السنوات السوداء 1940 ـ 1944 طائفة من الكتب حظيت بوجه الاجمال بجمهور كبير (انظر النجاح الذي حققه نقش هنري امورو A. AMOUROUX.)، وتلي فترة (الثورة الامبراطوية). وبالمقابل، فإن عشريات 1815 ـ 1848 تثير اهتماماً أقل من الاهتمام بـ (الامبراطورية الثانية).

إن ذوق الجمهور يتجه بطبعه شطر سيرة الحياة المتميزة بأنها إن لم تكن رومانسية الصبغة، فهي لاتسرف في سعة المعرفة. فالقراءة هنا انطلاق، حلم.

القارئ ينشد فيها ماكفّت الرواية عن تقديمه. أليس (نابليون) هو القائل في نهاية المطاف: (ياالحياتي من رواية!).

ولكن الجمهور يسعى كذلك للحصول على المعرفة مما يقرأ. ومن هنا نجاح كتب وإن كانت تقوم على سعة المعرفة من طراز (**معجم نابليون**) (فايار)، ويليه (**معجم القرن العظيم**) (للناشر ذاته). ثم إن الكتاب المرجعي، والمنتخبات العالمة، هما من الكتب المطلوبة باكثر من كتب المحاولات المتألقة ولكنها مسرفة الانغماس في اللحظة الراهنة فلا يكتب لها إلا نجاح عابر.

وأخيراً، يود قرّاء الكتب التاريخية ان يمتحوا منها عبراً. معرفة الماضي لفهم الحاضر فهماً افضل: إن تاريخ الحصار القاريّ يساعد على فهم حصار العراق عام 1990 على نحو أفضل.

2 ـ واجبات المؤرخ تجاه قارئه

على المؤرخ واجبات تجاه قارئه كما على البائع حيال زبائنه.

الواجب الأول: الوضوح. لقد كانت الغواية كبيرة على الدوام، وهي تحمل المؤرخين على الكتابة بلغة مجردة غامضة بحيث تمضي في مجاراة العلوم الدقيقة. وقد حاكى التاريخ الاجتماعي أحياناً علم الاجتماع، وأسرف التاريخ الاقتصادي باستعمال المنحنيات والأشكال البيانية، وهي مما لايحيط به القارئ المتوسط إلا قليلاً. وإن فكرة أن يكون العالم غير مفهوم لدى الجماهير فكرة تضاد الروح العلمية وتحيل بالأحرى على أطباء (موليير) MOLIÈRE. ولم يكن لدى (كلود برنار) CL. BERNARD. وكذلك عند (باستور) PASTEUR من همّ شاغل سوى شرح اكتشافاتهم بوضوح.

الواجب الثاني: الأمانة. ينبغي على المؤرخ أن يُصْدِقَ قارئه فلا يحاول أن يخفي ثغرات توثيقه، ولا يقين براهينه. وان حواشي أسفل الصفحات ليست تمريناً متكلفاً لسعة المعرفة. إنها تقدم للقارئ الأدلة على وجهات النظر

المعروضة، وتتيح له احتمال التحقق. ومن شأن ثبت المراجع أن يشير إلى الأعمال الاخرى المتصلة بالموضوع.

الواجب الثالث: الموضوعية. إن مايدفع المؤرخ هو طلب الحقيقة الماضية. ولذا ينبغي عليه الإقبال على دراسة الموضوع دون أحكام مبيّته أو إنحياز. فالموضوعية هي القاعدة المطلقة. وإن كانت لاتحول في الوقت ذاته دون العاطفة. ومن النافع بهذا الاعتبار قراءة الصفحات التي كتبها (بيير رنوفان) P. RENOUVIN. في كتابه (**تاريخ العلاقات الدولية**) عن أصول حرب 1914 الحرب التي أفقدته ذراعه. إن عَرْضه يتحلى بموضوعية تامة.

الواجب الرابع: التجديد. على المؤرخ ألا يقتصر على إعادة نسخ ما قال أسلافه. عليه ان يأتي بالجديد في توثيقه، في الأنوار التي ينير بها الموضوع، في الالحاح على أشخاص غير معروفين كثيراً. مافائدة كتاب جديد عن (لوكريس بورجيا) L. BORGIA. إذا لم يأت على الأقل بقراءة جديدة لمصيرها؟

الواجب الخامس: التشويق. على المؤرخ أن يُعنى دوماً بالقارئ وأن يضع نفسه موضعه ويتساءل هل سيكون مهتماً بما يكتب، وذلك دون مساس بدقة برهانه.

ينبغي على المؤرخ أن يكون خادم الحقيقة مع إحترامه قارئه القادم.

الفصل العاشر

التسويق

1 ـ مايمكن جنيه من التكوين التاريخي

علينا ألاّ ننسى أن التكوين التاريخي الجديد قد يعود بخير كثير: فالتاريخ على مستوى معين ـ ينمّي جودة المحاكمة (يستطيع المرء تمييز مايريد قوله وترتيبه)، والجدّ (يحذر المرء مما لاتدعمه الوثائق)، وقدرة تحليل الوضع **بحدود حقيقية** (يستطيع المرء الوقوف على مبعدة من الحادث)، والروح الانتقادية، وفضول البشر، وتأثير الأهواء والمصالح، وحس **النسبي** (يترتب على المؤرخ الجيد أن ينظر إلى الأشياء نظرة مرنة). ومن المعلوم أن ذلك يشكل خصالاً فكرية ناصعة في المشروعات، وفي الإدارة (يجب على الدبلوماسي التزود بتكوين تاريخي متين، وذاك على الأقل ظل هو الراي الذائع حتى في سنوات 1960): مأن نحتاج إلى من **ينهض بالتعميم** في إحدى المؤسسات حتى يكون كل المؤرخين محلاً متميزاً لأنهم مبدئياً ـ حين يحظون بتكوين ذكي ويتسمون بالشخصية ـ اناس قادرون على الملاحظة، وعلى تحليل الوضع، وعلى ضبط أحكامهم، وهم يملكون شعوراً حياً بحركية الأشياء. والمؤرخون يصلحون (مستشارين)، (مراقبين) ناجعين، ومديري مكاتب وزراء حاذقين. إنهم يتحلون بجرعة المرونة وبالارتياب الضروري لأنهم ـ كما يقول (سان ريل) SAINT REAL - «**درسوا الحوافز والاراء والأهواء البشرية**

فادركوا دوافعها وحيلها ومورارباتها واخيراً كل الأوهام التي تبعثها في القلب»(*). ثم ان المؤرخ يضيف (زيادة) مهنية: كذلك يجب عليه إبان تكونه أن يسهر بعناية على خصّ هذه الخصال الفكرية (لاشيء أكثر خطراً من تكوين اناس مذهبيين، عقول ملغومة، متحزبين تعوزهم الروح الانتقادية). ومثلما كان (البرت سوريل A. SOREL يقول سنة 1896 - وهو يدرِّس التاريخ الدبلوماسي في (المدرسة الحرة للعلوم السياسية) - (إن تعليمنا لن يؤتي أُكله، ولن يقدم ثماره إلا في وقت لاحق، عندما يترتب على تلاميذنا الذين تتلقفهم الحياة العملية الاجابة عن أسئلة، بل حلَّ مسائل، وهم مضطرون إلى أن يحكموا بأنفسهم وأن يقرءوا وان يعثروا في ذاكرتهم على المفهومات، وفي عقولهم على الينابيع التي بها يكون رجل العمل): إنها مبادئ حكيمة كان من الواجب أن توجّه اولئك المكلفين بتكوين مؤرخين ممن لايريدون أن ينتجوا مجرد «اساتذة».

2 ـ مهن التاريخ

على المرء أن يجيد حساب مواهبه: فمن يشعر بتذوق التاريخ، من يتحلى بموهبة المؤرخ، ينبغي عليه أن يجيد اختيار مهنته، منزلته. ينبغي أن يتنبأ بقواعد اللعبة، وأن يتجه داخل عالم معقّد، وان يحرص على وضع الفرص كلها إلى جانبه. وعليه، بوجه خاص ـ ولو أُهمل ذكر ذلك ـ أن يملك بعض معارف إضافيه: معلوماتية (لجميع مهن المؤرخين)، **لغات أجنبية** (ينبغي أن يتكلم المؤرخ لغتين أو ثلاثاً، وأن يكون قد أقام بعض الوقت في الخارج)، **تقنيات سمعية ـ بصرية** (إن اجادة الكلام اليوم في الاذاعة، في التلفزة، أمر ضروري لكل المهن،

(*) ينبغي التفكير في مكانة التاريخ ـ والتاريخ الإدراي والسياسي ـ في تكوين الإداريين، ولا سيما معاهد الدراسات السياسية. وقد فطنت مدارس الإدراة إلى ان غياب التكوين التاريخي أو الحاسّة التاريخية ـ قد يكون ازعاجاً في ممارسة تلاميذها لمهنتهم لضآلة استعداداتهم ليكونوا «تعميميين». إن(مدرسة البوليتكنيك) تسعى اليوم إلى تنمية مقرراتها التاريخية (ولا سيما في تاريخ العلوم).

وتلك مادة بدأ تعليمها في بعض المدارس)(*) ثم عليه أن يملك الإدارة (ينبغي أن يمتلك بعض القدرات الإدارية، فالمؤرخ هو غالباً مطالبٌ بإدارةٍ، بتحضيرٍ، بتنفيذ موازنةٍ، بتحرير برنامج(**)) لن يعرف كثيراً كيف يختار مهنه: ليس ثمة لائحة موجهة، غالباً يسترشد بالبصيرة، بـ معلم، باستساغاته الشخصية (ينبغي على مؤرخ الفن امتلاك إحساس وتذوق الرسم)، وأيضاً يسترشد بالصدفه: لكن ينبغي أيضاً أن يرى «سلّاكة» (مع اختيار المدخل، مع تنمية الاحتراف، مع درجة المناقشة في الدخول إلى المجموعة) وفهم أن «المهن» تتبدل بالضرورة؛ ينبغي الاهتمام بالسكانة (علم إحصاء السكان) وفي مستقبل القطاع(***): مثال ذلك إننا سنحتاج دون ريب من الآن حتى سنة 2000 - 2010 الى مؤرخي لفن المتاحف، للتراث، للتعليم - ولكن هذا (الخط) أعقد، وهو يفترض توافر (موهبة)، موهبة غير رتيبة، وحيث المنافسة حادة. وكذلك فإن السمعي - البصري (انظر فيما يلي: المهن الجديدة) سيحتاج إلى مؤرخين، ولكنها (مهن) جديدة تماماً، مهن تمر بطفرات قوية، وإن (ممارسة المهنة) ليست بالامر اليقيني. وقد نحتاج في العشرين سنة القادمة إلى مؤرخي علوم في مدارس المهندسين، ولكن ذلك يشكل مهنة خاصة، صعبة جداً. ومن المحال **وضع قائمة بالمهن** التاريخية.

ولكن لنقدم بعض الاشارات الوجيزة(****).

(*) - مثال ذلك في (**مدرسة التراث**) سنة 1989 - 1990 : ينبغي على محافظ متحف أن يجيد عرض تنظيماته في الاذاعة أو التلفزة المحلية.

(**) يتوجب أيضاً التأكيد على تعليم الإدارة الذاتية.

(***) حول هذا التقدير لتطور القطاع، انظر المدارس التاريخية، ص 117 - 119

(****) ينبغي ألاّ يقتصر اهتمامنا على التاريخ العام، بل يجب أن يشمل تفكيرنا التورايخ التقنية أو المستقلة التي كان معدل النمو فيها مرتفعاً في الغالب لأن التكوين لما يبلغ حداً كافياً ولا اختيار العناصر الجديدة في الماضي (انظر: **المدارس التاريخية**، المصدر المذكور ص 77 ومايلي).

1 ـ مهن قديمة

1 ـ **التعليم العالي**(*): إننا، على مايبدو، سنحتاج منذ الآن وحتى سنة 2000 ـ 2010 حاجة عظمى للمعلمين اذا ماطُبق برنامج توسيع الجامعات. ولكن المهنة تتعرض إلى أن تكون أبطأ اذا كان اختيار العناصر الجديدة حاشداً، وخضع **الاصطفاء** لقواعد معقدة لايتضح ادراكها دوماً إلا بعد الانضمام إلى السلك (سيكون دور الاعمال المنشورة آخذاً بازدياد مطرد بفضل اصلاح (سافاري) SAVARY ودرجة **التأهيل**): يجب على المرء اختيار منزلته ـ ومن العسير جداً تغيير اختياره فيما بعد، تغيير مجاله ـ إجادة اختيار (مشرفه)، التفكير الجيد فيما سيكون حال العلم بعد (س) سنة، الامتناع عن السير (حيث يذهب الناس كافة) (إن روح القطيع خطرة ـ ألا إن المهنة ملأى بالأشواك، والمرء ياتيها متأخراً(**)، ولابد من الرضوخ لتقديم كثير من التضحيات **الشخصية**(***) ـ ولكن المهن الحقوقية أو الادارية تتكشف عن العبوديات ذاتها.

2 ـ **البحث:** إن عمل الباحث **وقتاً كاملاً** في (المركز القومي للبحوث العلمية) CNRS ـ أو في معهد البحوث ـ عمل بطئ بالضرورة، وإن عدد المناصب ضعيف (89 ملحقاً ومكلّفاً البحث في التاريخ الحديث والمعاصر سنة 1985 و 15 معلماً ومشرفاً على البحوث)، والولوج صعب (يجري الاختيار **بالمسابقة** الآن)، وآفاق التقدم تبقى محدودة (ينبغي فوز المعني بان **يُعترف** به

(*) اننا ندع جانباً هنا التعليم الثانوي الذي يحدد وقتاً قليلاً للبحث في الغالب، ولكنه يجلب الطمأنينة، وان اختيار العناصر الجديدة كان ينبغي أن يكون ضخماً في سنوات 1991 ـ 2000.

(*) لقد ابان (دانيل روش) انه من بين (351) **استاذ أصيل** سنة 1983 كان يوجد فقط 24 ممن كان عمرهم أقل من ثلاث واربعين سنة. وأنه بين (615) **محاضر** يوجد فقط أقل من الثلث ممن كان عمرهم كذلك أقل من ثلاث وأربعين سنة. وبذا يتضح أن العمل في المهنة بطئ ـ وأن الشيخوخة في سلك المؤرخين في هذا التاريخ كانت مرتفعة (انظر: المؤرخون اليوم.. القرن العشرون 1986 ص9).

(**) ـ انها مهنة تستلزم الكثير من الوقت.

باحثاً جيداً). ويترتب على الباحث من حيث المبدأ ألا ينقطع عن التدريس، بل يجب عليه السعي لنقل معرفته: وهذا ليس بالسهل دوماً. يجب تحذير الشباب من بعض سراب البحث، وهو درب ضيق جداً في الغالب.

3 ـ **مهن التراث:** لقد تبدلت قواعد اللعبة قليلاً عند إحداث (مدرسة التراث)(*) وهي تضم العمل في المتاحف، والمحفوظات، وجرد الآثار، وفي الأوابد التاريخية، وفي المكتبات التراثية. وهذه مهن تتيح الفرصة لازدهار مهنة المؤرخ، ولكن لكل مهنة منها عبودياتها (والامر ينتهي في الغالب إلى القيام بعمل اداري بالدرجة الاولى). وان الوصول إليها صعب (يجب في الغالب متابعة دراسات طويلة، النجاح في مدرسة شارت)(**) وقد كانت ممارسات المهنة الى الآن مخيبة للآمال، وأحياناً يكون العمل صارماً ويستلزم مواهب تنظيم وأمر (إدارة متحف، تنظيم معرض، كل ذلك يفترض توافر سجية حازمة).

2 ـ مهن جديدة

لننظر الآن إلى لُمَعٍ مهن جديدة من شانها أن تقدم خلال العشرين سنه القادمة فرص عمل ذات شأو إلى المؤرخين الشباب الذين سيقبلون بذل الجهد من أجل التكيف الضروري.

1 ـ **الصحافة:** التاريخ دراسة تمهيدية جيدة لولوج مهنة الصحافة. وقد يكون التكوين التاريخي الجيد نافعاً جداً لولوجها (من ذلك الصحافة الدبلوماسية، الاقتصادية)، ولكن صحافة الأفكار تبدو جد مهدَّدة اليوم (قد لايجد أمثال بانفيل BAINVILLE أو كاكسوت GAXOTTE مكاناً لهم بعد الآن).

(*) مرسوم 14 أيار 1990.

(**) ECOLE DES CHARTES.

2 ـ **النشر**: انها من المهن الآخذة بالتطور الكبير حيث تشتد الحاجة إلى اناس جيدي التكوين في الفروع التاريخية، بيد أن المنافسة شديدة، واللااستقرار كبير. وعلى الرغم من ذلك يمكن إحداث تأثير قوي على البحث: فالناشر ينهض بدور مدير على نحو مطّرد في تطور العلوم، وفي توجيه الانتاج. إنه يدرس أذواق الجمهور، ويقدم (الطلبات) الى المؤرخين، ويستطيع تشجيع التجديد، فهو مسدِّد المنحى.

3 ـ **السمعي البصري: مهن تنمو بسرعة**: مستشار تاريخي لفلم أو لفلم تلفزيوني، عالم توثيق ومحفوظات، بل ومنتج أيضاً. ولكن هذه المهن تفترض توافر معلومات تقنية جيدة؛ انها مهن تقع في تقاطع الصورة، والتاريخ، والحوار الأدبي والمحفوظات: إن قطاع تاريخ الإعلام الجماهيري كان محكوماً بالنماء السريع من جراء جوع الصور والأقنية الأوربية، ولا مناص من تكوين سريع لاختصاصيين في هذا المجال، ولكن من الضروي التحلي ببعض المواهب: معرفة كتابة سيناريو، إماطة اللثام عن أذواق الجمهور والتكيف معها، تقديم فلم والتعليق عليه، أو عرض وثائق منسية والعثور عليها، أو الاسهام في (انتاجات اوربية)، كل ذلك ليس بالمهنة السهلة. لقد فتح (مارك فرو) الدرب في مسلسلات تلفزية تستخدم اشرطة الأخبار. ونحن نذكر كذلك الاذاعات الشهيرة لمسلسل (الكاميرا ترتاد الزمان) لـ (آلان دوكو A. DECAUX. و (أندرِه كاستلو A. C. ASTELOT أو مسلسل (حضور الماضي) لـ (جان شيراس) J.CHIRASSE لقد كان (لوكوف) LE GOFF مستشاراً تاريخياً لفلم (آنو) ANNAUD وعنوانه **اسم الوردة**. وكان (جان تولار) J.TULARD المستشار التاريخي لـ (الثورة الفرنسية) وهو فلم الاحتفال بمرور مائتي عام.

4 ـ **تاريخ المشروع**: إننا نشاهد نمو **خدمات تاريخية** في المشروعات الكبرى (وقد مهد سبيلها بونت .آ .موسون(PONT - A - MOUSSON). وإن (جمعيات) أو (مكاتب دراسات) التاريخ تنمو لتقديم خدماتها، انتاج فلم، تأليف كتاب ذكرى مئوية، القيام ببحوث في المحفوظات (أو المساعدة على تصنيفها)،

تنظيم معرض(*): **الهندسة التاريخية** مهنة جديدة كل الجدة فيما يبدو(**). اننا لما نعرف بعد أية أشكال سيأخذها **تاريخ المشروع** هذا (وهو يتبع إلى حد كبير الرعاية الثقافية)، ولكن المشروعات ـ مثل الادارات ـ تهتم باطّراد بذاكرتها، وتحاول العثور على جذورها، تحاول صنع (ثقافة المشروع)، وينتهي الأمر بالمؤرخين بأن يصبحوا **مستشارين ثقافيين** للمشروعات الكبرى. وثمة مهنة اخرى تظهر: مهنة **القائم على المحفوظات الشفهية** المكلّف بجمع المحفوظات الشفهية، وملابسات الحياة والذكريات المتصلة بالمؤسسة أو الجماعة (مهندسو المعادن أو عملاء صرف النقود): وذاكم درب واعد جداً(***).

5 ـ **مهن (محلية)**: من المتوقع خلال العشرين سنة القادمة نمو مهن محرّكي(****) المؤسسات الثقافية، الاذاعات المحلية، مستشاري الاتصالات للجماعات ـ المحلية، لمديري ادارات ثقافية، لمستشارين في (التنمية الثقافية): انها مهمات تفترض توافر كثير من التخيل ومن القدرة الابداعية، ولكنها تفترض كذلك تكويناً تاريخياً متيناً(*****).

(*) انظر: «التاريخ والمشروع» ـ جريدة لوموند 23 آذار 1990 ص 39 ـ 42 وم. هامون M.HAMON و ف. توريّه F. TORRES: ذاكرة المستقبل ـ التاريخ في المشروع 1987.

(**) انظر بصدد الهندسة التاريخية: نشرة التاريخ والكهرباء 1990 (العدد رقم 14 ـ 15 ص 149 ـ 153.

(***) انظر (ج. كاريتي) J.CARIETY إحداث محفوظات شفهية، **المجلة الإدارية** 1988 ص563 ـ 567. لقد أحدثت السيدة (فلورنس ديكامب) F.DSCAMPS سنة 1989 تعليم تقنية المحفوظات الشفهية في (المدرسة العملية للدراسات العليا) (القسم الرابع).

(****) ANIMATEURS

(*****) **الهندسة الثقافية** هي في سبيلها إلى النمو، وإن الجماعات المحلية ستنفق قريباً على الثقافة ضعفي ماتنفقه الدولة أو أكثر، وإن «الاستحقاقات الأوربية سترى زيادة المؤسسات الثقافية اللامركزية وخاصة بدافع الاقاليم والمناطق» (ث.مولار C.MOLLARD : وهذا مايفترض بذل جهد ضخم في التنمية والتنظيم والبرمجة وتكوين مختصين بالإدارة.

إننا ندرك أهمية هذه المهن الجديدة: ولكن بعضها مازال يحبو والمنظر العام بعيد جداً عن الاستقرار، ولكن ثمة نقصاً لاشخاص يتحلون بالمعارف وبالقدرات الضرورية - التكوين التاريخي جيد يمنح **ضمانات** لأرباب العمل. وليس من السهل دوماً ان **يبرهن المرء على جدارته**، أن يحظى **بالاعتراف** به، وإن نصيب التجديد والابداع نصيب كبير: مثال ذلك كيف ننمّي العمل الثقافي لفريق كبير من الناس في مجال التراث، والمتاحف، وحماية المواقع المهمة، وادارة المحفوظات المكتوبة والسمعية - البصرية، وحفظ (الذاكرة)(*)؟ كيف ننمّي اذاعات من مستوى علمي جيد عن تاريخ التصوير أو تاريخ فن المعمار - في مسلسل تلفزيوني، بينما يفترض من الناحية التقليدية (دون برهان) أن (ذلك لايثير اهتمام الجمهور)، وان المنتجات كانت الى اليوم تافهة - إلا فيما ندر - ؟ كيف نقدم للتلفزة، للتعليم الثانوي، للأعمال الثقافية في الأقاليم وفي الخارج معرض صور بيانات سمعية - بصرية (أفلام، أشرطة فيديو، اقراص سمعية رقمية)؟ تلكم هي أسئلة صعبة لما تحل لغياب التفكير المذهبي، والاستثمارات الفكرية....

(*) يعوز المجتمعات المحلية في الغالب **مستشارون ثقافيون** قادرون على تأمين اتساق هذه الأعمال. وإن عقود الخطة بين المدن وبين وزارة الثقافة تتنبأ باختيار محركي تراث، ولكن المهنة سيئة التحديد (ماذا يعني ابراز أهمية تراث؟ هل ينبغي الاقتصار على التراث المعماري؟).

الفصل الحادي عشر

توقعات المهنة

لاشيء يفوق خطراً محاولة الحديث عن مستقبل مهنة: كل شيء يتطور بسرعة، والمنظور يتغير، وقد تصاب صورة المهنة سريعاً بالتشوه. ان المؤرخ المتخرج سنة 1992 سيبقى استاذا حتى سنة 2035 وربما ثابر على (الانتاج) حتى سنة 2050 : ومن الممكن قياس الفوارق(*). ولكن التفكير في مايتغير أو سيتغير، أمر ضروري: لاننا نرى بذلك على نحو أفضل الحدود، الفجوات، الملابسات التي تكتنف الأعمال الراهنة. ولقد تغيرت مهنة المؤرخ تغيراً كبيراً منذ ثلاثين عاماً، ولا مناص من أن تطالها ايضاً طفرات مهمة.

1 ـ عوامل التطور

ليس ممكناً، على مايبدو، إغفال العامل السكاني: سيكون لدينا تاريخ بلد شائخ سكانياً، وهذا لن يخلو من عقابيل(**). فمعدل تجدد المؤرخين سيكون

(*) انظر بصدد مستقبل التاريخ: **المدارس التاريخية** ـ المصدر المذكور ص 106 ـ 120

(**) سيزداد عدد المتقاعدين (اطباء، اداريون، مهندسون، قضاة) الذين «سيكتبون في التاريخ»، سينخرطون في بحوث تاريخ تقني، وربما وجب الإعداد لهذا التطور، وأن نقيم **حلقات بحث اطلاعية** في التاريخ لهؤلاء المتقاعدين الذين يملكون معرفة تقنية ثمينة.

أضعف (وقد رأينا سلفاً بين سنتي 1920 - 1940 نتائج شيخوخة سكانية في مجال العلم)(*).

ولكن بعض عوامل التطور جديرة بالتفكير:

1 - **الوسائل المادية:** يتعرض جهد الدولة في نطاق البحث التاريخي لخطر الانتقال من القطاع الجامعي إلى المؤسسات الثقافية (تراث، آثار). والتطور جلي سلفاً (لم يُنظر إلى TGB البتة على انها مؤسسة علمية كبرى، كما كان شأن المكتبة الوطنية). ومن جهة اخرى، إن مطالب (التخطيط) في الدولة عرضة للازدياد، وهذا أمر خطر على معدل التجديد دوماً: وان خطر **اخضاع البحث للبيروقراطية** خطر بديهي. وقد كان (لوي روبرت)(**) L.ROBERT سلفاً سنة 1965 يهزأ متفكهاً من المزاعم البيروقراطية الرامية الى توجيه كل شيء، وكان يفضح خطر تطبيق قواعد العلوم الدقيقة على البحث التاريخي: «أما أن يأتي (تيودور ممسن) TH.MOMMSEN وهو مؤرخ لغوي، وحقوقي، وعالم بقراءة الكتابات القديمة، وعالم مسكوكات، بآثاره لنشرها، لنشر دراسته عن حق الترف، عن حق الجزاء، فثمة خطر ماثل في أنه في وقت قريب، أو غداً، في ضوء انتشار الوثوقية (على مستوى العلم)، (داخل إطار عمل الفريق) قد يُرفض بحثه الذي سيوصف بأنه (فردي)، وقد أصبحت هذه الصفة أشبه بتحقير حين تطلق على عمل علمي وسيقال له: أستاذي العزيز،ألا تلاحظ بأسف أن إسمك لايوجد في البرنامج الذي أعدّته آلاتنا والعاملون فيها منذ خمس سنوات، ولإعداد ذلك عهدنا الى فرق عمل من متعهدينا. أجل، إما أن يشكل بعض المخبرين الصغار (لنستعمل لغة العلوم الدقيقة) وأحدهم سيكون مختصاً بقراءة الكتابات القديمة، والآخر بعلم الأختام، الخ، وهم سيكونون عازمين على ألا يعرفوا شيئا سوى ميدانهم الصغير، أنهم يشكلون فريقاً،

(*) يبدو أن ثمة تقهقراً في المدرسة التاريخية الفرنسية بين سنتي 1920 - 1940 (وهذا يفسر غضب أمثال لوسيان فيفر).

(**) في خطاب في مجمع النقوش والآداب.

مجموعة عمل، وعندئذٍ سينساب إلى قلب مخطّطي العلم شعور نشوة، وذاكم هوكنز لمن سيحظى بالأولوية، وسيكون الأمر أفضل إذا صرّح الباحثون الجدد بأنهم لايريدون العمل بأيديهم ولا بأدمغتهم، وأنهم يطالبون بآلات،لابآلات راقنة وحسب، بل آلات قراءة وتفكير(*).

وغير خافٍ أننا من خمس وعشرين سنة رأينا النتائج السلبية لهذه المطالب البيروقراطية ـ ومن المحتمل أن هذه النزعة ـ في أحسن الذرائع ـ الرامية إلى نفي الفرديات، إلى تسوية البحث، تتعرض كثيراً إلى أن تنمو في العشرين سنة القادمة، مادامت الإعتمادات المالية تتضاءل.

2 ـ **الوسائل التقنية**: من الواجب أن نرى نمو منظومات معلومات غنية (بنوك المعطيات الثقيلة)(**)، إمكانات نسخ الوثائق (لقد غيّر الناسوخ جزئياً شروط العمل، مبتكرات تقنية ـ ومثلاًفي مجال **نقل الوثائق عن بعد**(***) ـ لابد

(*) كان (لوي روبير) يهزأ أيضاً من الأقنعة العلمية الجديدة: «تنزع العلوم الانسانية ـ لانهم دفعوا بها في هذا الإتجاه ـ إلى قبول بعض الأقنعة العلمية، أعني قناع أو طاقية العلوم الدقيقة. إن الأمر الأساسي في المركز القومي (للبحث العلمي) هو هذه العلوم الدقيقة، فقد ألبسونا لباساً غريباً عن لغتها. اننا نلقى بلاغات تتصل «بمخابرنا»، واستبانات عن بحوثنا المتفق عليها بالعقود». يتصورون «فرق عمل» بحسب انموذج فرق عمل المخابر، أو بعض المخابر؛ والكتب هي جملة «توثيق». وعندنا «مهندسون» يؤلفون مثلاً ثبوت المراجع اللغوية الثمينة اللازبة، وذاك عمل عادي جداً للمهندسين الذين نعرفهم في الحياة الجارية. ويبدو ان هذه الأقنعة لامندوحة عنها. وإن تنظيمات واصلاحات قد تكون نافعة في العلوم الدقيقة صارت تُطبَّق بحذافيرها على العلوم التاريخية واللغوية. إننا أشبه بزائدة صغيرة ملحقة بالعلم الكبير. وهم مستعدون لاعطائنا معوجات (أفكار غربية) وحواسب أكثر من المكتبات عامة»: ومنذ 1965 زادت سيطرة الشر ... ولا ريب في أن يوماً آتياً سيفرض التفريق التام بين العلوم الإنسانية والعلوم الدقيقة، وإحداث تنظيم مستقل أكثر مرونة و «أذكى» لصالح العلوم الأولى.

(**) انظر ج. كاريتي J .CARITEY **مصارف المعطيات المرتدّة**، المجلة الادارية 1988 ص 379 ـ 382.

(***) العمل يتغير كثيراً عندما يستطيع المرء الحصول فوراً على نسخة مقال أو وثيقة.

أن تتدخل)، وسائل إستغلال المعطيات معلوماتياً. وفي بعض القطاعات، تتطور طرائق العمل بسرعة(*)، ولكننا ندرك تماماً حالات التردد، والتلمس (لقد تحسنت تقنية الطباعة تحسناً ضخماً، و لكن هذه التسهيلات لمّا تبلغ بعد تعدد **مجموعات النصوص**(**) أو **منسوخات** الوثائق الأساسية) .

3 - (**رابطة المؤرخين**)(***): إن تفجر (الرابطة) بين مشارب شتى، لغات، مدارس ، فرقاء، يحتاج إلى المتابعة. وإن **الجَيَشان** فرصة التاريخ، وقد كان يترتب علي، ثقل التاريخ الإيديولوجي، مذهب سنوات 1950 - 1970 أن يمضي متضائلاً (المؤرخ الذي تخرج حوالي سنة 1970 سيمارس مهنته ويكون له «تلاميذ» حتى عام 2015). لقد ولّى زمان المذهبية الاقتصادية المنتصرة، والتاريخ الاجتماعي بحاجة شديدة إلى زعماء، وقد وجب اللجوء إلى **إعادة التصنيف**، **إلى مراجعات**، **إلى تبديلات**، **إلى مزارعات**، وكذلك إلى (لاتَشييس) - وقد بدئ به منذ 1981 - 1983 - ونحن نرى اليوم بوضوح **ارتباك** بعض المؤرخين. وغير خافٍ أن هذا (اللاتَشييس) - الذي ينبغي أن يؤتي أُكله تماماً سنة 2000 - 2010 - يغير بالطبع صورة المهنة تغييراً طفيفاً: ألاّ يبقى المرء (استاذ حقيقة) أمر لابد له من بعض النتائج. وإن الإحجام عن الاستمرار في خلط التاريخ باللاتسامح، التاريخ بالعمل السياسي، التاريخ بالمنطق (لقد أبان (ج.ف. سيرنيلي) J. F.SWIRINELLI بصدد العرائض كيف كان هذا التقليد راسخ الجذور تماماً) يتيح بالضرورة تغيير الصورة وكذلك تغيير **الممارسة** (لقد لوحظ سنة 1989 - 1990 مدى غياب المؤرخين عن تفسير أزمة أوربة الشرقية: إنهم لم ينبسوا تقريباً ببنت شفة)(****). ولعلّ من الأسهل الوثوق بصورة مؤرخ يعلّم

(*) بنوك الصور ستساعد كثيراً مؤرخي الفن وستكون عالمية.

(**) انظر ج تويليه بصدد مجموعات الوثائق في: التاريخ الاقتصادي والمالي - دراسات ووثائق (1989 ص 399 - 404).

(***) انظر فيما تقدم: التاريخ الايديولوجي.

(****) وذلك نتيجة - بيّنة - لتراجع التاريخ الدبلوماسي في سني 1960 - 1990 . ومن الجائز افتراض أن حوادث 1989 - 1990 وحقيقة اللااستقرار الحاضر اليوم ستنمّي تذوق التاريخ الدبلوماسي لدى المؤرخين الشباب وستوقظ «مواهب».

الريبية، يعطي التّذوق النسبي، ويحض على التسامح (هذه الفضيلة التي يحتاج إليها المجتمع اليوم أشد الحاجة) ـ ولم تك هي حال مؤرخي سنوات 1950 ـ 1980 ـ أو أيضاً صورة مؤرخ قادر على **الاصغاء** للناس، وعلى الإجابة عن قلقهم حول جذورهم، أصولهم ... مؤرخون أقل نضالاً، **أقل عدوانية**، أقل انغلاقاً: وذاك تطور محتمل.

1 ـ نتائج

لنفحص بإيجاز مثل هذا التطور:

التطور الأول: يترتب على «مهنة» المؤرخ أن تتحرك: فالمرء لم يعد يعمل على منوال أعوام 1950 ـ 1960 . بل إنه اليوم أحوج، وأكثر انتباهاً للنص ، لسعة المعرفة، أكثر إحساساً بالشكل: ومن البيّن أن هذا المستوى من المطالب ـ وهو مستوى باق على الرغم من 1968 وعلى الرغم من الغوايات المذهبية (البنيوية) أو المعتمدة على الإقتصاد القياسي ـ لابد وأن ينمو نمواً كبيراً، ويترتب على المؤرخ أن يستزيد من البحث باطّراد عن مؤلفات يفهمها الجمهور الكبير .

التطور الثاني: يترتب على التاريخ أن يغدو **تقنياً** على نحو أعظم من جراء انهيار الإيديولوجيات وتقهقر الحتمية والماركسية المنتشرة التي كانت قد شوّهت ـ إن جاز القول ـ قسماً من الإنتاج التاريخي (لقد رأينا بوضوح الذكرى المئوية الثانية للثورة): تشهد على ذلك تماماً الأزمة الظاهرة **للحوليات**، أزمة التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي . إنهم يسعون لتعقيد التاريخ، لإعادته إلى لاحتمية، يميلون إلى اعادة اكتشاف دور الأفراد، والحظ، وإلى احتمال (التفاسير البسيطة والنهائية)، الى (التموجات) العلمية المزعومة، إلى أحلام التاريخ الشامل. ونحن ندرك بوضوح، سلفاً، هذه الصنوف من التطور التي قد تحدث ضد (الجامعة)، والجامعة دوماً لاتستطيع اللحاق بالركب، وتتميز غالباً بصلابة قوية (مثلاً تاريخ التقنيات ـ أو تاريخ الطب ـ وهما يواجهان أكبر عنت يحول دون نموهما في

الجامعات)، أو أنها تقاوم ببراعة تكبر أو تصغر (لقد كان كثير من الناس غير حذرين في كتاباتهم، ويترتب عليهم، عاجلاً أو آجلاً، الحطُّ من شأو كتلة كبيرة من الإنتاج التاريخي ذي المضمون الايديولوجي المسرف، ولكن المؤرخين عرق رهيب، سيستطيب هذه اللعبة أيما استطابة). سيكتشف تاريخ الفن، تاريخ الموسيقا، ستُنمّى التواريخ الاختصاصية (ذات الاستقلال الذاتي) - تاريخ الجسد، تاريخ الاشياء، تاريخ الحياة اليومية، النساء أو تاريخ الألم... وكذلك سيكون المؤرخ مضطراً إلى حساب جهوده حساباً افضل - إلى التكيف، إلى التجديد: إن التواريخ التقنية تفترض استثمارات سابقة، معلومات تقنية معمقة (إن احدنا لايستطيع كتابة تاريخ جدي للمرض النفسي دون التحلي ببعض معرفة دقيقة، ودون قراءات ضخمة)(*). ولعل المهنة تصبح أقسى، وأشد قسراً، واكثر إزعاجاً: سيفكر المرء على نحو أكبر قبل أن يكتب (أو يستنتج)، سيكون مضطراً إلى إهمال المعماريات المذهبية التي كانت ضئيلة التكلفة من حيث التنقيب في المحفوظات، لن يحاول **تفسير كل شيء** (الأمر الذي يرجع بالمعنى الصحيح إلى الشعبذة إو إلى التضليل)، وستكون المنافسة بين المؤرخين أعظم، وأخطر (العمل جماعة كان يؤدي إلى خلق بعض ريع الموقع)، والمرء سيكون أقل ثقة بمعلوماته...

التطور الثالث: قد لايكون المؤرخ مؤرخاً وحسب، بل كذلك - إن كان موهوباً - يكون صحافياً، منتجاً تلفزياً، مستشار (الأمير). انه تطور ضروري بلا ريب، وستكون له اصداء على ممارسة المهنة (إنه، عندما يغادر مكتبه، قد لايرى

(*) الحق ان التاريخ الاقتصادي، من أجل اجادته، كان يفترض، هو أيضاً، توافر معلومات جيدة في الاقتصاد السياسي، وفي إدارة المشروع، وفي التقنيات المصرفية وأعمال البورصة، وفي الحقوق التجارية، وفي المحاسبة: ولكن هذه الإستثمارات التمهيدية كانت نادرة، وكان بعض المؤرخين يجهلون كل مايتصل بمبادئ الاقتصاد السياسي ونظرياته الجديدة.

الأشياء على النحو ذاته. انظر فيما بعد: الخاتمة). ولعل من الواجب إعداد العدة لانفجار المهنة الملمع إليه، أن نكوّن لهذه الأدوار الجديدة(*)، وهي تمضي على مايبدو لترتيبات مختلفة لانكاد نتصورها (ونحن ندرك سلفاً الافتراق ـ الخطر أحياناً ـ بين المؤرخين «الإعلاميين» وبين الآخرين).

لنميز إعتسافاً بضعة عروق من المؤرخين: **واسع المعرفة** (الاختصاصي)، **السياسي** (خريج الاركان أو النقابي)، **الاتصالي**. ان الافتراق غير حاسم، ولكن من النادر أن يتحلى الاتصال هو أيضاً بسعة المعرفة: إنها (مهن)، (وظائف) تستلزم مواهب مختلفة. ونحن ندرك أخطار التقهقر، التشوه، **الانحرافات** في كل فئة من هذه الفئات. فاذا عمدنا إلى التفكير في **سياسة التاريخ** (مثلما كان بول لويليوت يتمنى في الماضي) أدركنا أيان ينبغي أن نتجه. علينا:

ـ أن نساعد واسعي المعرفة مساعدة منهجية، نمنحهم بسخاء الوسائل الضرورية لأنهم هم الذين يذودون عن التاريخ على المستوى الدولي، وان دوائر التخطيط ـ مثل مطالب النشر ـ تنزع إلى كبحهم (كيف نطبع كتاباً لن يقرأه في البدء سوى مائة قارئ، ولكنه سيبقى مستعملاً بعد خمسين عاماً؟)(**)

ـ دعم **التكوين الفلسفي** للمؤرخين، تنمية حسهم الفلسفي (وتلك مسألة أساسية في العلم)(***)، تنمية التفكير الابستمولوجي (وهنا توجد فجوة مؤسفة).

(*) لاشيء أخطر من الإرتجال في هذه المهن الجديدة: ليس من السهل كتابة سيناريو لأفلام تاريخية.

(**) اذا مضينا على هذا المنوال وجدنا خطراً أكيداً لزوال منشورات سعة المعرفة بكل ابهتها النقدية واذن فثمة انخفاض **المستوى** الدولي للبحث الفرنسي.

(***) المؤرخ يعيش في اغلب الأحيان من كسبه.

ـ العمل بجميع الوسائل على تشجيع **معدل التجديد**(*)، مراقبة تطور الابحاث في الخارج(**)، تشجيع مسددّي المنحى، الموقظين، حاشدي المواهب، ومنحهم الوسائل.

ـ اجتناب **عقابيل سيطرة** (السياسات) التي بالغت بدورها في سنوات 1960 ـ 1990 وحاولت (مراقبة) البحث بأكثر من تنميته.

ـ مساعدة **الاتصاليين** بدعم جهودهم الرامي إلى توسيع منزلة التاريخ في وسائل الإعلام الجماهيري وفي تكوين مؤرخين شباب أنضر عوداً على هذه التقنية الجديدة(***). هكذا تتضح ـ الخطوط الاولى ـ لتطور هذه الأدوار أو (الوظائف):

ولكن الأفضل هو أن يعي المؤرخ الشاب أن عليه ذات يوم أن يختار، وأن كل منظومة من هذه المنظومات تنطوي على شيء من اخطار التشوه...

التطور الرابع: ينبغي الحذر من امرين، الاحتكاك واللاتسامح وقد رأينا مساوئهما في هذه السنوات الأخيرة. ومن المعلوم أن مهنة المؤرخ، ولا ندري لماذا، تستثير نتائج **الاحتكار**، وتحضُّ على **اللاتسامح**، ويجب الحذر دوماً من هذه الخطيئات التقليدية. اللاتسامح عرضة كبيرة للزيادة. لنقرأ مرة أخرى (جريمة سلفستر بونار) مما كان يثير أكبر الحنق لدى (مارك بلوخ): إن (برنار) يصغي في حديقة اللوكسمبورغ إلى اثنين من خريجي (شارت) وهما يناقشان نظريتهما:

(*) انظر ج. توبليه: التجديد في التاريخ ـ **نشرة تاريخ الكهرباء** العدد 12، 1988 ص 5 ـ 13

(**) يجري هذا على نحو حسن (جزئياً) في العلاقات الشخصية، ولكن ينقص **منظومة ملاحظة**، «مرصد» لنزعات البحث في الخارج (ولا سيما لمؤرخي الثلاثين الاربعين سنة الأخيرة).

(***) سننظر بعين التقدير إلى قيام مركز تكوين للمؤرخين على مهن الاتصالات. وان الخطر بديهي ماثل في انصراف هؤلاء الاتصاليين إلى التخصص وانفصالهم عن التاريخ.

(يقول (بوليه) BOULMIER: هل قرأت **قائمة الابرشيات البنديكتية لعام** 1600 التي وضعها سلفستر بونار؟

(اجاب (جيلي) GELIS: ياإلهي ! كلا، ولا أعرف إن كنت سأقرأها. سلفستر بونار أحمق.

(وعندما أدرت رأسي رأيت أن الظل قد امتد إلى المكان الذي كنت أجلس فيه. وأصبح الطقس رطباً واعتبرتني احمق جداً إذا تعرضت لخطر الرثية في الاصغاء لسفاهة هذين الشابين الدعيين...)

من البديهي أن كل جيل يحتاج إلى التنكر للجيل السابق، إلى طرح **مسائل جديدة**، إلى أن يقول: (س) لم يفهم، إنه احمق، جاهل. وهذه القسوة نحو الأجيال القديمة تتعرض جداً لزيادة كبرى: فمن البديهي تعذر التنبؤ بما يريد الجيل أن يفعل، أو بما سيفعل، الجيل الذي سيبلغ الثلاثين سنة 2010 (الذي دخل الثانوية سنة 1990)، وما هي المؤثرات (والمؤثرات المضادة) التي سيخضع لها، ماهي أحلامه القادمة، اي الأساتذة المشرفين الذين سينالون اعجابه: وهذا ما يجب أن يحضّ على كل (توقع)، على الحيطة. اننا لا نعرف كثيراً أيان نمضي: قد تتضاءل مكانة التاريخ الجامعي بالنسبة لتاريخ (غير المحترفين) (وهذا أمر أكثر من محتمل)(*)، وربما ستكون صلات (رابطة) المؤرخين بالمجتمع صلات أوثق (يترتب على التاريخ السياسي أن يضطلع بدور كبير)، وقد يدير المؤرخون على نحو آخر صورتهم عن المؤرخ بفضل وسائل الإعلام الجماهيري (وهذا لايخلو من خطر).

(*) من الغريب أن أي تقدير أو تحليل لايوجد عن «منظومة» المؤرخين غير المحترفين (إنهم ليسوا فقط «مؤرخي يوم العطلة» بل انهم يمثلون ثلثي الانتاج التاريخي). ونحن نتصور جماح المؤرخين الجامعيين أو حنقهم: ولكن ذلك غير معقول، وهو في بعض القطاعات «ضيق»، وإن التاريخ المسمى التاريخ «الجامعي» هو إما غير موجود، وإما من أكثر الموجود تفاهة.

خاتمة

ان تكون مؤرخاً، تلك مهنة ـ ولكنها كذلك موهبة، حال، مزاج: بل اننا نشعر بشيء من التوجس لدى اختتام كلامنا على مثل هذا الموضوع.

التاريخ ليس سوى لعبة تتغير قواعدها ببطء شديد(*): **اللاعبون البارعون فيها قلة. فهناك اللامحظوظون، والساهون، والتافهون، والخانقون: وهذا ما يوجب اقامة فويرقات في اللوحة (الناس يسرفون في ميلهم إلى الكلام على المؤرخ المثالي).** أترانا نقدر على تقديم بعض النتائج المتصلة بهذه اللعبة بصفة موقوتة؟

الدرس الأول: ليس التاريخ مهنة سهلة. وقد يكون من السهل تدريس التاريخ، ولكن من الأقل يسراً جداً أن تكون مؤرخاً وتكتب التاريخ: انه ليس الصحافة، ولا المحاولة الفلسفية، ولا الرواية. والمرء يبقى بالضرورة أدنى من الوفاء بمستلزمات المهنة: فليست كمية الجذاذات، ولا عدد الصفحات بما يصنع المؤرخ الجيد:

ما بالاقلام ولا بعلب المحفوظات
سنتسلَّح يوم الغضب(**)

(*) يرفض مؤرخون كثيرون ألا يكون التاريخ سوى **لعبة**: فهم يؤمنون بطلب الحقيقي (او التصحيح، ويأبون ـ مبدئياً ـ لذة اللعبة. وقد قاد هذا الدرب إلى كثير من الغلو والأخطاء.

(**) لقد ضمَّن (بيغي) قصيدة حواء بعض الخبث قائلاً: ←

المؤرخ يعرف بالضرورة أن ثمة أموراً لن يعرفها البتة، وأن لاسبيل أمامه لبلوغها باستثناء جزء ضئيل من الوثائق، وهي في الغالب الوثائق الأقل أهمية، وانه لن يدرك البته سوى أمور **شبه حقيقية** - وغير يقينية - وان تجربة الحياة تعوزه في اغلب الأحيان (ان مؤرخ المصارف ليس **مصرفياً**)(*) وان وعي هذه الحدود الحتمية يشكّل في الغالب ينبوع قلق.

الدرس الثاني: لنكرر القول إن التاريخ مهنة حرفية، لها اخلاقها المهنية (تماماً كالساعاتي أو على الافضل النجّار)، ولها ذوق الإتقان، والأملس، والأمانة، والفردية، ورفض عمل الفريق، وأحياناً الشعور بصنع تحفة فنية، العمل **للخلود**. وهذه الخصال حرفية: الناس في (البيروقراطية) يسرفون في البحث، في امتداح عمل الفريق، وهو ذو حدود أكيدة: وكما يقول (امانويل لوروي لادوري)(**) EMMANUEL LE ROY LADURI E : «إن حساسية المؤرخ (ولا أقول الاختيار الايديولوجي) أمر أساسي. ولذا بات من الصعب العمل مع مساعدين في البحث، إذ المهم، في بعض الحالات، هو ارتكاسنا الشخصي أمام وثيقة. ولا يتعلق الأمر بالوثيقة وحدها، ولابي نفسي، بل بي وبها. وهناك زوج يتشكّل، للأفضل أو للأسوأ»: حدس المؤرخ وفطنته شيئان اساسيان، وتبقى المهنة **مهنة شخصية** (شأنها شأن **كتابة** المؤرخ). يصرح (لُوِي، روبرت) (L.ROBERT)(***): «إن عملنا لايمكن أن يغدو بأمانة عملاً صناعياً على نحو مايتبجح بذلك متبجّحون هنا وهناك ويرفضون العمل الحرفي، هذا

← لا بكاتب ولا بماكتب
سنتزود يوم القيامة (...)
وليس بأماني اساتذة التاريخ
ستتحصن يوم الحساب ...

بيد أن (سلفستر بونار) - حين نجيد قراءته، لم يقل شيئاً آخر.

(*) انظر فيما يلي: الدرس الخامس.

(**) لوموند 2 - 3 ايلول 1984.

(***) الخطاب المذكور لعام 1965.

العمل المنتوف، الأجرب. لاشيء يحل محل العالِم المخلص لمهنته: يجب جمع المواد بجهد شخصي، يجب تحقيق شخصي، نقد شخصي، تحرير شخصي. ينبغي البناء بناءاً بشرياً. لاشيء يحل محل الفرد لمحاولة فهم الحياة الغابرة مثلاً(...) يجب أن نكرر ذلك لأن بعض قائلين يتكلمون في اغلب الأحيان جداً، ودونما احتياط، يتكلمون عن مخابر، عن اعمال فريق، توزع الأموال عليها بسخاء، بينما يكون (الانتاج) - وذلك لأسباب بديهية - دون مستوى الطماحات (ان عمل الفريق، في الأغلب، يهبط بالبحث إلى الأدنى)(*). ولعل نصيب الشعور المسبق، الحدس المبدع، سيكون في المستقبل مطّرد الأهمية. بيد أن ثمة نزعة لتقليد العلوم الدقيقة تقليداً أعمى من جراء ابهامات مؤسفة.

الدرس الثالث: المؤرخ يعيش - وسيعيش - في **لاطمأنينة** متزايدة، فهو لم يبق واثقاً بسيطرته على مهنته سيطرة تامة. ذلك أن للعمل الحرفي عبودياته البديهية، وقواعد التدريب فيه، وقواعد الوجدان، والحذر، وهي مما تصعب مراعاته في الغالب. زد على ذلك أن هناك ضغط الشباب، ومنافسة الإعلام الجماهيري التي تهدم سلطة المؤرخ (اللاإعلامي) - المجالات الجديدة التي ينبغي (ارتيادها) (الأمر الذي كان (بول لويليوت) يهزأ منه والذي كان يفترض أن المعلوم سابقاً، أن ما كان لُمح سابقاً هو معروف تماماً، وبيِّن تماماً، وهذا زيف في الجغرافية أيضاً)، الأزياء الذائعة، صنوف القسر المتنوعة المواكبة للطلب، لمقتضيات الناشرين: لم يبق المؤرخ واثقاً بنفسه، بل عليه أن يواجه (تهديدات) ضبابية - المعلوماتية، وسائل الإعلام الجديدة، (الجمهور الكبير). وهذه الحال من القلق المموّه ببراعة متفاوتة تزداد خطراً من جراء خصومة الاساتذة المشرفين، وحسد المؤرخين، فالمرء يكفّ عن جرأة المجازفة، وينكفئ في الغالب،

(*) كان التاريخ الاقتصادي - وإلى درجة أدنى التاريخ الاجتماعي - يستند إلى الرقم، وكان جمع الأرقام عملية تتسع إلى أن ينجزها فريق عمل: ولكن وسواس الأرقام المذكور بدأ يبدو «بالياً»، والباحثون يحذرون الاحصاءات التي لاتخضع لنقد كافٍ كما يحذرون وساوس علماء الاجتماع الماثل في المبالغة باستعمال الأرقام.

وهو يرتعد، على مجاله المصون بعناية. وهذا الموقف الانعزالي أكثر شيوعاً ويخطر في البال، بل اننا نلفاه أحياناً لدى الشباب الذين يحسبون جهودهم بدقة.

الدرس الرابع: يعمل المؤرخ ثلاثين أو أربعين عاماً، أي فترة جيلين أو ثلاثة. وهو مضطر، لأجل بقائه، إلى تغيير أغراضه، وطرائقه، ومنظومات استدلاله، وفيما عدا ذلك يحيا على **عكس التيار**، وإعادات النظر هذه شاقة يساء تحملها، في الأربعين أو الخمسين من العمر (انظر فيما سبق: نظرة الحذر). فمفردات الطلاب، وحساسيتهم تتغير، ويلقى المرء بعض المشقة من أجل التكيف، أو على الأقل يلزمه شيء من الشجاعة. ومما يثير دهشة الملاحظ **عزلة** المؤرخ الذي يشعر ـ شعوراً رهيباً ـ بموت انتاجه، يشعر بان السن توقعه في الشرك، وأنه في عالم متحرك يعسر الاحتفاظ فيه (بسلطته) التي تتبدد شيئاً فشيئاً إن لم يتخذ حذره. إن القدرة على التجديد تمحي. والتلمُّس يتلاشى، والمرء يتراجع فيكرر نفسه وهو يأبى الإعتراف بالإخفاق ـ وثمة إخفاقات كثيرة ـ ويصبح تافهاً. أجل، إنها رؤية متشائمة: ولكن المؤرخ ليس إنساناً يبني مذاهب، ويصنع كائنات عقلية، بل إنه إنسان يحيا، ويحلم، ويضلُّ، ويتألم.

الدرس الخامس: الحق أن ليس في وسع المؤرخ المكوث في مكتبه والاقتصار على تعليمه: فذاك تصور انغلاقي، **نضالي** عن المهنة. ينبغي أن تكون عيناه جد مفتوحتين على الحياة، حتى لو انطوى ذلك على بعض الأخطار. وأما قيمة أعماله ونجاحها في الغالب، ومهما يكن في الأمر، تتبع تجربته بالآخرين، وكما كان (دوم لوران بينار) DOM LAURENT، مؤسس رهبانية (سان ـ مور) ST - MAURABERNARD، يقول سنة 1619 إنهما تتبع (**ذاك العلم التجريبي الذي يحصل من البراعة، ومعاشرة الناس، وتجربة الأعمال**): وتلكم قاعدة مجهولة باسراف من قواعد اللعبة، وهي تنطوي بآن واحد على

حسنات ومساوئ بديهية. كان (رينه ريمون) يذكّر(*) بما كان يعود الى المسؤوليات التي اضطلع بها في الجامعة وفي إدارة الكنيسة): (اذا أحسنًا وزن كل شيء، فإنني أعتقد جازماً أن تنوع هذه التجارب لم يكن ذا شأو أقل من شاو التعليم والقرارات وممارسة المهنة. وإذا قسنا ماتعلمت منها وقارنتُ فائدتها بجهلي السابق خلصت تقريباً إلى التساؤل: هل يمكن أن يكون المرء مؤرخاً دون أن يكون قد بارح البتة مكتبه: إنني أخجل إذ أفكر في بعض الأحكام أو بعض التفاسير من حيث طريقة اتخاذ قرار سياسي وقد اتخذتها حينما لم تكن لدي أية تجربة بهذه الأمور. أجل، يستطيع التخيل، ويجب عليه، أن يعوّض عن فقدان التجربة. فالتخيل الذي أعدّه إحدى ملكات المؤرخ الرئيسة، والتي تنير أمامه عقليات اخرى، إنما يكشف له عن سبل تفكير مغايرة، ولا يمكن أن يُطلب من كل مؤرخ إهمال دروس الحياة التي تأتي و (تغني رؤيته التاريخية...) بديهي اننا لانستطيع الإسراف في نسيان هذا البعد من أبعاد المؤرخ الجيد(**): وعندنا أن على المؤرخ الشاب ألاّ يدع ـ إن استطاع ـ الفرصة تمرّ دون معرفة آفاق اخرى غير مستودعات المحفوظات. إن الحياة تعلّم الماضي تماماً كالوثيقة ـ ولكن كثيراً من الاساتذة المشرفين ينسون أن يذكّروا طلابهم بذلك ...

(*) **محاولات تاريخ ذاتي** ـ المصدر المذكور ص 336.

(**) المشكلة المطروحة هنا على نحو غير مباشر هي مشكلة إسهام «غير المحترفين» ـ كتّاب عدل، أرباب مصارف، مهندسون ـ في تنمية هذا الفرع أو ذاك من فروع العلم: لأن التخيل لايستطيع، بالبداهة، ان يحلّ محل فقدان المعارف التقنية. ويبدو لنا ان التاريخ الديني يكتبه شخص لا مؤمن هو أيضاً شيء خطر. ولكن الجامعي لايحب أن يفكر في هذا النوع من المشكلات، لأسباب بديهية.

IV — Les historiens commencent à se confesser, à parler d'eux-mêmes (même si ce qu'ils ne disent pas est plus important que ce qu'ils disent). On lira

Philippe Ariès, *Le temps de l'histoire*, 1954
- *Un historien du dimanche*, 1981.
Emmanuel Le Roy Ladurie, *Paris-Montpellier*, 1982
Essais d'ego-histoire (sous la direction de Pierre Nora), Gallimard, « Bibliothèque des Histoires », 1987 (récits d'Agulhon, Chaunu, Duby, Girardet, Le Goff, Michelle Perrot et Rémond).

V — Nous n'avons pas encore de journal d'historien, en dehors de celui de Michelet, qu'il faut lire

VI — Pour tout ce qui concerne le métier (textes réglementant la profession comme problèmes de méthode) il convient de dépouiller la revue *Historiens et géographes*

مراجع تفيد حول الموضوع

La bibliographie sur l'exercice du métier de l'historien est somme toute peu importante

I. — Sur le métier, on possède un seul ouvrage important, inachevé, ce qui rend parfois l'interprétation malaisée, de Marc Bloch, *Apologie pour l'histoire ou métier d'historien* (rédigé en 1941-1942, Colin, 1949, rééd. 1974).

II. — On dispose aussi de deux livres d'accès difficile pour l'historien débutant (ou l'historien non professionnel)

Raymond Aron, *Introduction à la philosophie de l'histoire, essai sur les limites de l'objectivité historique*, Gallimard, 1938.

Paul Veyne, *Comment on écrit l'histoire, essai d'épistémologie*, Le Seuil, 1971 (nouv. éd 1978)

III. — Sur les méthodes de raisonnement de l'historien et les difficultés du métier, on peut lire :

Charles-V Langlois et Charles Seignobos, *Introduction aux études historiques*, 1898

Charles Samaran, *L'histoire et ses méthodes*, Encyclopédie de la Pléiade, 1961.

Guy Thuillier, Pour une prospective de l'histoire, *Revue historique*, juillet 1973, p 119-130

Paul Leuilliot, Histoire locale et politique de l'histoire, *Annales ESC*, 1974, p 139-150 (essai sur l'historien local)

Michel de Certeau, *L'écriture de l'histoire*, Gallimard, 1975 (d accès parfois difficile)

Denis Roche, Les historiens aujourd'hui : Remarques pour un débat, *Vingtième siècle*, octobre 1986, p 3-20

Pour une histoire politique, sous la direction de R Rémond, Le Seuil, 1988

Etre historien aujourd'hui, Unesco, 1988

Jacques Le Goff, *Histoire et mémoire*, Gallimard, 1988 (avec une importante bibliographie)

صدر عن الدار

هرمس مثلث العظمة (النبي إدريس)	تأليــف: لـويـس مينـــــارد
الفرعون الأخير أو زوال حضارة	تأليــف: فرانسيــس فيفــر
مفهـوم العـدل في الإســلام	تأليــف: د. مجيـد خدّوري
موسوعة الجيب لقواعد الإنكليزية	إعــداد: نورالدين البهلـول
أصحاب الجلالة ـ الأهرامات	تأليــف: ف. زاماروفسكــي
نِتْشه مكافحاً ضدّ عصرة	تأليــف: رودولف شتاينر
قـوّة الأسطـــورة	تأليــف: جوزيف كامبل
أقاصيــص شرقيـة	تأليــف: مارغريت يورسينار
شخصيّة الابن البكر (نشأةً وبلوغاً)	تأليــف: كيڤين ليمان
التوظيف الاجتماعي للمحرّم (التابو)	تأليــف: سليمان حريتاني
ولادة إله (التوراة والمؤرخ)	تأليــف: جان بوتيرو
أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى	د. كارم محمود عزيز
الجنس ومنابع الموت	تأليــف: د. وليام كلارك

المحتويات

المقدمة	5
تصدير	9
الفصل الأول: كيف يغدو المرء مؤرخاً؟	13
الفصل الثاني: تطور المهنة	17
الفصل الثالث: ما المؤرخ؟	27
الفصل الرابع: مهنة شاقة5	39
الفصل الخامس: الحوافز	47
الفصل السادس: المخاطر	61
الفصل السابع: الاستعمال الجيد	75
الفصل الثامن: المهم في التاريخ	87
الفصل التارسع: جمهور المؤرخ	95
الفصل العاشر: التسويق	99
الفصل الحادي عشر: توقعات المهنة	107
خاتمة	117

إذا كان هذا الكتاب يجيب على أسئلة تهم الطلاب ممن يتقدمون لنيل درجة الأستاذ كي تساعدهم فيما يفكرون ومايفعلون أو سيفعلون وهذا ليس فقط في مهنة التاريخ بل بصدد كل مهنة فإنه في الوقت نفسه يعطي فائدة للقارئ سواء أكان يرغبُ في التعرف على كيفية وأسرار كتابة التاريخ إذ يُيسِّر له فهم الإشكاليات التي تقع فيها الكتب التي يقرأها. أو أكان هذا القارئ ممن يرغبون التحوّل والعمل في كتابة التاريخ سواء أكان تاريخ الأحداث والسياسة أو تاريخ الآداب والفن، أو تاريخ مهن وعلوم كالطب والصيدلة والهندسة والعمارة والكيمياء والجيولوجيا.. الى آخر القائمة.

والكتاب يجيب على أسئلة من نوع: من أين تصدر موهبة المؤرخ؟ كيف تطوّرت المهنة؟ ما هي أسس المهنة؟ ما صعابها؟ ما حوافز المؤرخ؟ ما المخاطر التي يتعرض لها؟ هل يوجد استعمال جيد للتاريخ؟ ما المهم في التاريخ؟ ما جمهور التاريخ؟ ما التسويق اليوم وغداً؟ هل نستطيع تحديد توقعات المهنة في المستقبل؟

وقد أفرد فصلاً خاصاً لكل من هذه الأسئلة.

ص.ب. ٤٤٩٠ هـ/ها. ٢١٢٦٣٢٦
سورية دمشق دوامكة ص.ب ٢٢٢٩